

حتى لا تنسى الأمةُ تاريخها



فهد العيد

Fahad Al-Eid





خالدون

فهد العيد

حتى لاتنسى الامة تاريخها

تمهيد

الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومصرف الأمور بأمره، ومزيد النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدر الأيام دولا بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاض على العباد من طله وهطله، الذي أظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع؛ أحمده على إظفاره وإظهاره، وإعزازه لأوليائه ونصره أنصاره، ومطهر بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر إجهاره.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه، وأرضى به ربه، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله رافع الشكر وداحض الشرك، ورافض الإفك.

مقدمة خطبة الجمعة الأولى بالمسجد الأقصى بعد تحريره من الصليبين بعد احتلال دام 92سنة على يد صلاح الدين، 1187ميلادي.

ألقاها القاضي محي الدين بن الزنكي الدمشقي

«أمة لا تعرف تاريخها لا تحسن صياغة مستقبلها» لا نقرأ التاريخ لكي نبكي على الماضي أو نفتخر به بل نقرأه لينير الطريق أمام أبنائنا.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين ومن اهتدى بهديه وسار على نهجه.

التاريخ هو ذاكرة الأمم ومرآتها وحقل تجاربها فلا تستطيع أمة أن تعيش بلا ذاكرة، صفحات التاريخ تملؤها الدروس والعبر لأنها نتاج عقول وأجيال كاملة تعاقبت عليها ورسمت المستقبل الذي هو حاضرنا الذي نعيشه، يقول «أرنولد توينبي» أحد أشهر المؤرخين في القرن العشرين في محاضرة ألقاها في القاهرة في الستينيات من القرن الميلادي المنصرم: «أن الذين يقرأون التاريخ ولا يتعلمون منه، أناس فقدوا الإحساس بالحياة، وأنهم اختاروا الموت هربا من محاسبة النفس أو صحوة الضمير والحس».

وفي هذا الكتاب حاولت نقل بعض الأحداث من التاريخ الإسلامي، والتي يكون من نقلنا لها فائدة عظيمة لهذا الجيل

الواعد، جيل الأمة الإسلامية، حاولت أن أنقل بعض أهم القرارات التي اتخذت، فتغيرت بها مجريات الزمان والأحداث، والتي كانت لها نتائج عظيمة عم خيرها الأمة الإسلامية، وما نقلي لها إلا لغاية، وهي نصح لشبابنا وفائدة تنعكس على مستقبل أولادنا وأخذ العظة والعبرة لنتبوأ مقام الريادة والقيادة بين العباد.

وهذا الكتاب ما هو إلا نقل للتاريخ الزاخر بالقص والعبر الكفيلة بهزيمة العقبات والنكسات التي تواجه شباب الأمة اليوم، ونذكر نماذج مشرفة من حياة الأمة الإسلامية، حتى نأخذ ما يهمنا منهم، فالحكمة ضالة المؤمن، وقد يتساءل البعض لماذا نتحدث عن التاريخ أصلا أو لماذا ندرسه وماهي أهميته بالنسبة لنا اليوم؟ دعونا من البكاء على أطلال الماضي والمجد الضائع والخوض في التاريخ القديم وكأنكم تبكون على اللبن المسكوب، فلنعش في حاضرنا ونهتم بدراسة واقعنا ونفهمه أفضل من إضاعة الوقت على ما فات ونبني مستقبلنا.

والحقيقة أن التاريخ ليس مجرد قصة أو حكاية أو تسجيل للوقائع ونقل للأحداث، إنما ندرس التاريخ للعبرة والعظة وتربية الأجيال القادمة ومعرفة أخطاء الأمم السابقة.

فالتاريخ مليء بالأحداث التي تشابه واقعنا الحالي، فهو ليس علما للماضي بل هو علم للحاضر والواقع والمستقبل، فبه

نعرف أحوال الأمم السابقة وأسباب صعودها وهبوطها ورفعتها وانتكاستها، فكان لزاما علينا دراسة سيرهم وذلك لنأخذ العبرة التي تكون فيها الهدى والصلاح للأمة.

وعندما ننظر للقرآن الكريم نجد ثلث القرآن قصصا، وهذا هو الأسلوب الرباني في تربية الخلق أجمعين، يقول الله تعالى (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون)، فالله سبحانه وتعالى قص قصصا كثيرة في القرآن الكريم منها قص الصالحين والطالحين وقص الأنبياء وقص الأمم السابقة، وذلك لنأخذ العظة والعبرة فيقول الله تعالى (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب).

فعندما ندرس أو نتعرف أو نقرأ عن التاريخ الاسلامي فليس الغرض منها تحريك العواطف والبكاء على ما سبق من حضارة، وإنما هي طريق أو صفحة نحاول معرفتها حتى نلتمس فيها ما يفيدنا وما يهمنا ويضيف لعقولنا حكمة وعبرة ربما تكون مخفية عنا، فالتاريخ الإسلامي مليء بالأحداث والقرارات والوقائع والتقلبات التي تنفعنا وتمدنا بالقوة والإلهام والحكمة حتى نغير من واقعنا وحالنا، وحتى نستنبط حال المستقبل ونضيء الطريق.

التاريخ ليس سردا للأحداث، لكنه في حقيقته وقوف أمام تلك الأحداث لتحليلها وتفسيرها واستخراج الدروس التي

يمكن الاستفادة منها في حاضرنا ومستقبلنا، فعجبا لأمة لها تاريخ عريق مشرف تخاصمه ولا تستفيد منه شيئا وتعتبره ماضيا زال وتراثا باليا.

وإن من أهم الأسباب والدوافع التي جعلتني أكتب هذا الكتاب، هي مقولة قرأتها في أحد المواقع، لا أعرف أمانة من قائلها، ولكنها أثرت في وجعلتني أفكر مليا بحال أمتنا، وهي تقول:

إذا أردت أن تهدم حضارة أمة فهناك وسائل ثلاث هي: اهدم الأسرة والتعليم وأسقط القدوات والمرجعيات. ولكي تهدم الأسرة: عليك بتغييب دور الأم، اجعلها تخجل من وصفها بـ «ربة بيت»، اجعلها ترك المنزل ليكون غربيا عنها، فتضيع (التربية)!

ولكى تهدم التعليم: عليك بـ المعلم، لا تجعل له أهمية فى المجتمع، وقلل من مكانته حتى يحتقره طلابه ويحتقرون علمه، فيضيع العلم، ولكي تسقط القدوات: عليك بالعلماء المعتبرين، اطعن فيهم وقلل من شأنهم، شكك فيهم حتى لا يسمع لهم ولا يقتدي بهم أحد، فيضيع (الدين)!

فإذا اختفت «الأم الواعية» واختفى «المعلم المخلص» وسقطت «القدوة والمرجعية».. سقطت الحضارة!

وصية تكتب بماء الذهب

من الخليفة عمر بن عبد العزيز، إلى الحسن البصري: «اجمع لي بإيجاز ببن أمري الدنيا والآخرة»

فكتب الحسن البصري:

«إنما الدنيا حلم، والآخرة يقظة، والموت متوسط، ونحن في أضغاث أحلام، من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر في العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضل، ومن حلم غنم، ومن خاف سلم، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، ومن علم عمل فإذا زللت فارجع، وإذا ندمت فأقلع، وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبت فأمسك»

فتنة عظيمة

غضب العز بن عبد السلام عندما فوجئ بوجود حانة تبيع الخمور، فما كان منه إلا أن خرج إلى الحاكم «نجم الدين أيوب» فوجد الشيخ السلطان والأمراء يقبلون الأرض بين يديه، وحوله يصطف الحرس فما كان من الشيخ الجليل إلا أن نادى السلطان باسمه مجردا دون ألقاب وبصوت مرتفع «يا أيوب» !

فالتفت السلطان ليرى من الذي يناديه باسمه هكذا مجردا دون ألقاب، ليجد سلطان العلماء يحدثه ويقول: «ما حجتك عند الله عز وجل غدا إن قال لك: ألم أبوئك ملك مصر فأبحت الخمور؟»

فقال: «أو يحدث هذا في مصر؟!»

قال: «نعم في مكان كذا وكذا حانة يباع فيها الخمر وغيرها من المنكرات وأنت تقلب في نعمة هذه المملكة».

فقال: «يا سيدي أنا ما فعلت هذا إنما هو من عند أبي».

فهز العز بن عبد السلام رأسه وقال: إذا أنت من الذين

يقولون (إنا وجدنا آباءنا على أمة) (الزخرف آية 22).

فقال: «لا، أعوذ بالله» وأصدر أمرا بإبطالها فورا ومنع بيع الخمر في مصر.

ولما سئل الشيخ العز بن عبد السلام «كيف استطعت أن تقف أمام السلطان وتصرخ به أمام أمرائه وتناديه باسمه مجردا، أما خفته؟»

فابتسم العز بن عبد السلام وقال: «عندما استحضرت هيبة الله أمامي زالت عني هيبة السلطان ورهبته». ولم لا فهو بائع الملوك وسلطان العلماء.

العلماء ثلاثة أنواع: علماء الحق، وعلماء السوء، وعلماء السلطان. يقول الرافعي في كتابه «وحي القلم»: «أتدري يا ولدي ما الفرق بين علماء الحق وعلماء السوء؟ وكلهم أخذ من نور واحد لا يختلف، أولئك في أخلاقهم كاللوح من البلور يظهر نفسه فيه، وهؤلاء بأخلاقهم كاللوح من الخشب يظهر النور حقيقته الخشبية لا غير».

فعالم السوء يفكر كيف يتأول ويحتال ويغير ويبدل ويظهر ويخفي وما همه إلا ملء الجيوب والبطون، وعالم الحق هو المتمسك بالقرآن وهدي النبوة القائم على منهج قال الله وقال

الرسول وهدي الخلفاء الراشدين يخشون الله، هممهم رضا رب العرش إن أصلح السلطان أعانوه وإن أخطأ قوموه وأما علماء السلطان فهم الذي يستخدمون الدين لأي نظام سياسي فاسد، فهم قوم يخدمون بالدين ولا يخدمون الدين، يحيكون الفتاوي لستر عورات الحكام الأخلاقية وهفواتهم ويتفننون في ذلك كما يتفنن الخياط البارع في حياكة الثياب، وهؤلاء شرهم كبير وعظيم إذ أن فسادهم يقع على الناس أجمعين، فمتى تزوجت الفتوى السلطان أنجبت للمجتمع نظاما فاسدا مستبدا.

وهذه قصة قرار جريء لشخصية قاومت الظلم والتعذيب والقهر، شخصية رفضت التستر على هفوات السلطان وبطشه وضلالته، هي من أعظم شخصيات تاريخ الأمة الإسلامية وهي شخصية كتب الله عز وجل لمنهجها القبول في الأرض، فما أكثر من يقتدي بهذه الشخصية مع أنها ليست من زمن الصحابة ولا زمن التابعين إنما كانت تعيش في القرن الثالث الهجري، هذه الشخصية عندما توفيت يقول من حضر الجنازة «لم يجتمع في جاهلية ولا في إسلام مثل هذا العدد، لقد وصل العدد في جنازته إلى ألف ألف أي مليون مشيع لجنازته وفتحت كل شوارع المدينة التي مات فيها، وأخذ الناس

يدعون الناس الذين يمرون بالشوارع إلى الدخول للبيوت للوضوء والصلاة على هذا الإمام الجليل الذي توفي في القرن الثالث الهجري، عندما رأى النصارى واليهود والمجوس هذه الجنازة وهذه الجموع الكبيرة من المشيعين وهذه الخشية والرهبة في قلوب الناس عندما مات هذا الإمام الجليل أسلم في يوم وفاته عشرون ألفا من اليهود والنصارى والمجوس».

هذه شخصية من أروع شخصيات الإسلام التي أخذت قرارا جريئا جدا وثبت عليه وبهذا القرار حفظت السنة النبوية ونصرت ومحقت الفتنة والبدعة الضالة التي خالفت سنة نبينا صلى الله عليه وسلم بالأقوال والأفعال:

خرجت صفية بنت ميمون بنت عبد الملك الشيباني من مدينتها «مرو» وهي تحمل في بطنها جنينا، وما إن وصلت لبغداد واستقرت فيها حتى وضعت حملها فخرج إلى الدنيا ولد أسمته أحمد وذلك في سنة 164هـ، كان والد أحمد قائدا في جيش خراسان ولكن شاءت الأقدار أن يتوفى وأحمد لم يبلغ الثالثة من العمر، فعاش يتيما كفلته أمه واعتنت به، عاش أحمد فقيرا معدما في بيت صغير مما دفعه للعمل في سن مبكرة، فساعة يحمل أمتعة الناس في الطرقات وساعة

يبيع الثياب وساعة يعمل بالحقول، ولكنه لم يتوان عن طلب العلم والتعلم في بغداد التي كانت حاضرة العالم الإسلامي والتي كانت تزخر بأنواع المعارف والفنون المختلفة، فكانت أمه توجهه لطلب العلم في ذلك الوقت فحفظ القرآن الكريم وتعلم اللغة العربية وتعلم الكتابة وبدأ يتجه للأحاديث النبوية الشريفة ويدرسها ويحفظها رغم فقره الشديد، إلا أن أمه جاهدت في تعليمه وتربيته أحسن تربية، وكان كثيرا من الأوقات ما يناقش أمه كي تسمح له بالخروج باكرا لصلاة الفجر حتى يجد مكانا مناسبا للصلاة والجلوس بالقرب من الأساتذة في المحاضرات بعد صلاة الفجر وهو ما زال في سن السادسة أو السابعة.

فانظر أخي المسلم إلى هذه الروح المعنوية العالية والهمة الرفيعة التي ولد بها أحمد، وهذا الجهد المبذول في طلب العلم من أحمد وأمه التي سهرت في تعليمه وتقويمه، فمنذ الأيام الأولى لنشأته وهو يربى على العلم والفضيلة والدين والشريعة مع أنه كان يتيما فقيرا، وهنا يأتي دور الأم في المجتمع في إنتاج جيل عالم وعارف بأمور دينه محبا للعلم ومجلا للعلماء، فكان نتاج هذا التعب رجلا عظيما جليلا بقدره ومكانته.

كبر أحمد وتنقل في بلاد المسلمين طالبا للعلم، فزار الكوفة والبصرة ومكة والمدينة والشام واليمن وتعلم على يد الكثير من العلماء، أمثال الهيثم بن جميل وهو أستاذه الذي علمه ورباه، قال عنه «إن عاش هذا الفتى فسيكون حجة على أهل زمانه»، ويقول الشافعي وهو أيضا أستاذ أحمد فيخاطبه :«يا أبا عبد الله أنتم أعلم بالأخبار الصحاح منا، فإذا كان خبرا صحيحا فأعلمني حتى أذهب إليه كوفيا كان أو بصريا أو شاميا»، نحن نتحدث عن العلامة الجليل «أحمد بن حنبل» رحمه الله تعالى وهو من كبار علماء المسلمين وصاحب المذهب الحنبلي رابع المذاهب المشهورة.

أحمد بن حنبل رحمه الله كان يمشي حتى تشقق قدماه طلبا للعلم، فسأله أحد أصحابه ذات مرة: إلى متى تستمر في طلب العلم؟ فقال: «مع المحبرة إلى المقبرة».

ولم يكن في عصره أحد أحفظ منه لحديث رسول الله، حتى أطلقوا عليه اسم «إمام السنة وفقيه المحدثين»، وقالوا إنه كان يحفظ ألفألف حديث أي مليون حديث فأقبل الناس عليه يحضرون مجلسه فيتعلمون منه أمور دينهم، كان الإمام أحمد بن حنبل كثير العبادة، ذاكرا لله، غزير العلم، قوي

الحفظ، صبورا، متواضعا، متسامحا شجاعا في مواجهة البدع، وهذه لمحة بسيط عن حياة هذا العالم الجليل.

كبر أحمد بن حنبل وذاع صيته بين الناس وأخذ يدرس ويعلم الآلاف من طلبة العلم، فكان إمام أهل السنة ومحدثها، حتى ظهرت فتنة قادها رجل اسمه «أحمد بن دؤاد» وكان على نهج المعتزلة وكان مقربا من بلاط السلطان، فواجه أحمد بن حنبل هذه الفتنة العظيمة وقرر التصدي لها، وهذا القرار قارنه الكثيرون بقرار الصديق في مواجهة حروب الردة، هذا القرار هو الوقوف ضد فكر المعتزلة في قضية خلق القرآن لما له من تداعيات عظيمة على الإسلام والمسلمين.

من هم المعتزلة؟ هم مدرسة فكرية ظهرت في أواخر زمن هارون الرشيد اعتمدت في أحوالها على كتب فلاسفة اليونان، وهذه الكتب قد أخرجت هذه الفرقة عن العقيدة الإسلامية الصحيحة والمبادئ الإسلامية الحقة فابتدعت أمورا ما أنزل الله بها من سلطان، ومن هذه الأمور قضية خلق القرآن، فقالوا: «إن القرآن مخلوق».

ورد عليهم أحمد بن حنبل رحمه الله وكبار علماء الإسلام «أن القرآن كلام الله عز وجل غير مخلوق»، ولكن المعتزلة

أصروا على قضية خلق القرآن وعلى رأسهم أحمد بن دؤاد الذي كان وزيرا لدى المأمون بن هارون الرشيد، وفي هذه القضية تداعيات خطيرة وكبيرة، ومن هذه التداعيات أن كل مخلوق يعتريه النقص فإذا كان القرآن مخلوقا فهو معرض للنقص، ومن التداعيات أيضا أنهم لا يثبتون الكلام لله عز وجل والله سبحانه وتعالى يقول (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه)، ومن التداعيات العظيمة أن كل مخلوق يفنى ويموت وبذلك فإن القرآن لا يحفظ وهذا مخالف لكلام الله عز وجل (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)، والأخطر من ذلك كله أنهم حاولوا فرض هذا الرأي بالقوة على العامة والعلماء فلم يكتفوا بإخراج هذه البدعة، إنما أصروا على الأخذ بها وفرضها على الناس ومن حاول مخالفتهم إما سجنوه أو قتلوه وهذه فتنة عظيمة.

واستطاع المعتزلة السيطرة على فكر المأمون، وبدأ المأمون يطبق هذا الرأي على الناس، فأرسل المأمون رسالة إلى عامله في بغداد، ودعاه إلى أن يحمل الناس جميعا والعلماء على الأخذ بهذا الرأي، والعالم الذي يمتنع أن يقول القرآن مخلوق تقطع عنه الأرزاق.

وافق الناس على الأخذ بهذا الرأي خوفا من بطش المأمون، وحتى لو أنهم يبطنون غير ذلك إلا عددا قليلا من العلماء فثبت في بغداد أربعة من العلماء ولما استدعاهم حاكم بغداد في ذلك الوقت وأخذ يحقق معهم ويختبرهم وشعروا بالأذى الشديد الذي من الممكن أن يقع عليهم، ثبت اثنان وتردد اثنان أما اللذان ثبتا فهما أحمد بن حنبل رحمه الله ومعه شاب صغير اسمه «محمد بن نوح» فتم تقييدهما وحملهما إلى قصر المأمون، وفي الطريق مات محمد بن نوح في قيوده ولم يبق إلا أحمد بن حنبل فقط هو من وقف في وجه هذه الفتنة مصرا على أن القرآن كلام الله عز وجل مقاوما للبدعة والفكر الضال الذي نشره المعتزلة، وعلى رأسهم أحمد بن دؤاد الذي أيده المأمون بالقوة العسكرية والترهيب والتخويف.

وفي الطريق بعد وفاة محمد بن نوح، رفع أحمد بن حنبل رحمه الله يده وبصره إلى السماء ودعا الله سبحانه وقال: «اللهم إن هذا الرجل قد غره حلمك فتعدى على أوليائك بالضرب والقتل، اللهم إن كان القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مؤنته» وقبل أن يصل بن حنبل لقصر المأمون، وصلهم

خبر أن المأمون قد مات فتولى من بعده المعتصم والمعتصم رجل جهاد وله الكثير من المعارك، وهو الذي فتح عمورية ولكنه وقع في نفس الفتنة التي وقع فيها المأمون فكان على نهجه واختبر الناس، بل كان أشد اختبارا من المأمون، وكان تحت سيطرة المعتزلة فاستدعى المعتصم أحمد بن حنبل وحقق معه، وحصلت مناظرات بين بن حنبل والعلماء الذي هم على نهج المعتزلة، وفي كل هذه المناظرات كان المعتزلة يغلبون، ومع ذلك كانوا يصرون على رأيهم، فحبس بن حنبل حتى يقر برأيهم ويقول كما يقولون.

حبس أحمد بن حنبل في السجن وجلد وعذب، وفي مرة من المرات استدعاه المعتصم فقال له قل لي يا أحمد ولا تخف، فرد عليه بن حنبل ردا قويا وقال له: «والله يا أمير المؤمنين لقد دخلت عليك وما في قلبي مثقال ذرة من فزع منك»، انظر عزيزي القارئ لهذه الكلمات التي هي في منتهى القوة والإيمان في جوار الله سبحانه وتعالى، فقال المعتصم: «ما تقول في القرآن؟» فقال أحمد :«كلام الله قديم غير مخلوق، وإن قلت كلام الله مخلوق فقد كفرت بالله فإنك تنفي عن الله العلم قبل أن يخلق هذا الكلام، وإن هذا العلم أزلي مع الله

والله ليس له أول ولا آخر، فكذلك كلام الله ليس له أول ولا آخر».

ثبت أحمد بن حنبل على موقفه ورأيه، فحاولوا ثنيه عن ذلك بالقوة فتم زجه بالسجن وأدخلوا عليه عمه عله يغير من رأيه فحاول عمه أن يقنعه بتغيير رأيه أو يقول لهم ما يريدون ويجاريهم حتى يأمن على نفسه منهم، فقال له أحمد بن حنبل كلمة جميلة جدا نفتقدها في زمننا هذا، تعبر عن مبدأ الداعية العالم، فقال له: «الجاهل يجهل، والعالم يسكت، فمن لهؤلاء الناس!؟» بمعنى إن كان الجاهل لا يعلم، والعالم العارف يسكت خوفا من البطش فمن يعلم الناس ويشرح ويبين لهم السنة من البدعة، والحق من الباطل، والصحيح من السقيم، هذا المبدأ العظيم الذي ثبت عليه بن حنبل مبدأ عظيم بمعانيه وفكره.

وفي السجن كان هناك رجل سجن بقضية خمر مع أحمد بن حنبل، فجلس معه فرآه حزينا مهموما فسأله عن أمره فقال بن حنبل: والله ما أخاف الموت ولكني أخشى فتنة السوط، فقال له الذي حبس معه: يا هذا لقد جلدت أنا ألف جلدة لأني أشرب الخمر، أفلا تجلد أنت في سبيل الله!؟، فيقول بن

حنبل فسري عني بذلك، وتمت المناظرات بعد ذلك والجلد والتهديد وثبت بن حنبل على موقفه صابرا متحملا العذاب في سبيل الله صامدا وظل أحمد بن حنبل محبوسا في سجنه لمدة سنتين ولم يغير من رأيه أو فكره، فحصلت في بغداد ثورة كبيرة واجتمع الناس على قصر المعتصم يطالبونه بإخراج إمام المسلمين أحمد بن حنبل فخشي المعتصم على نفسه فأخرجه من السجن ولكن وضعه داخل بيته لا يخرج منه، ومنع عنه الناس والزيارات والتعليم والخطابة فحبس بن حنبل داخل بيته لا يخرج منه وتوفي المعتصم وتولى من بعده الواثق بالله، وكان على شاكلة من سبقوه وأحمد بن حنبل ما زال ثابتا على رأيه وعقيدته وشجاعته وقوته وبأسه في ظل تعاقب الحكام عليه.

وفي عهد الواثق بالله جاء عالم إلى بغداد وسمع عن هذه الفتنة فذهب إلى الواثق بالله وقال له عندي مناظرة أستطيع أن أناظر بها أحمد بن دؤاد صاحب فتنة خلق القرآن فتمت المناظرة بوجود الواثق بالله فقال الرجل: هل ستر رسول الله علما؟، فقال أحمد بن دؤاد «لا» فقال الرجل للواثق بالله هذه واحدة، ثم قال: هل كان الله عز وجل صادقا عندما قال «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم

الإسلام دينا»؟ فرد بن دؤاد: نعم كان صادقا، فقال الرجل للواثق هذه ثانية سجلها عندك، ثم قال الرجل: هل علم رسول الله هذه المعلومة أي «هل علم أن القرآن مخلوق؟» فقال بن دؤاد «نعم علم ذلك»، فقال الرجل: أعلم ذلك ووسعه أن يسكت عنها؟ علمها الصحابة ووسعهم أن يسكتوا عنها؟ وعلمها التابعون ووسعهم أن يسكتوا عنها؟ ولم يسعك أنت أن تسكت؟ فبهت أحمد بن دؤاد ولم يستطع الرد على هذا السؤال فرد بن دؤاد قائلا: إذا لم يعلمها، فرد عليه الرجل قائلا: لم يعلمها رسول الله وعلمتها أنت!؟ فوضع الواثق بالله يده على فمه يكتم ضحكه من موقف بن دؤاد، فعلم أن بن دؤاد هزم هزيمة شنيعة في هذه المناظرة.

ظل بن حنبل حبيسا في بيته ممنوعا من مغادرته حتى توفي الواثق بالله وتولى من بعده المتوكل على الله، وكان المتوكل على معتقد أهل السنة وأظهر السنة وأبطل هذه البدعة وأخرج بن حنبل من بيته وعظمه وقدره وأعاده للمسجد حتى ينشر الدعوة ويعلم الآلاف من طلبة العلم ويدرسهم ويتعلمون على يده الحديث فنصرت السنة ومحقت البدعة وانتصر بن حنبل في قراره الجريء الذي ثبت عليه.

فذهب الألم وسيبقى الأجر، وذهب الألم وحفظت السنة النبوية، وذهب الألم وتعلم الناس العلم الصحيح، وذهب الألم وبقيت العقيدة الصحيحة راسخة كل ذلك بفضل ثبات العالم الجليل أحمد بن حنبل حبر الأمة رحمه الله، نسأل الله عز وجل أن يكثر من أمثاله وأن يفقهنا بما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا وأن يحفظ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن ينصر المسلمين.

ذكر عن بن القيم الجوزية أنه قال:

«قد أجمع عقلاء كل أمةٍ على

أن النعيم لا يدرك بالنعيم،

وأن من آثر الراحة فاته الراحة،

وأنه بحسب ركوب الأهوال واحتمال المشاق

تكون الفرحة واللذة،

فلا فرحة لمن لا هم له،

ولا لذة لمن لا صبر له،

ولا نعيم لمن لا شقاء له،

ولا راحة لمن لا تعب له».

قرار وكفاح

تقول الدكتورة سهير السكري أخصائية اللغويات في جامعة جورج تاون في واشنطن أن الطفل الغربي حصيلته اللغوية 16ألف كلمة وهو في عمر ثلاث سنوات، في حين أن الطفل العربي محصور في اللغة العامية والتي حصيلتها 3 آلاف كلمة، أي أن الفارق بين حصيلة الطفل الغربي والطفل العربي 13000كلمة لصالح الطفل الغربي.

وبالتالي يصبح عقل الطفل العربي يعيش في حدود ضيقة جدا من التحصيل اللغوي، وهذه معلومات مفزعة وخطيرة ومعناها أن الأمة ضائعة، أو تكاد.

التعليم هو سبب رئيسي من أسباب ضعف أمتنا وتأخرها اليوم، وشباب اليوم مآل معظمهم إلى الترف والكسل وهذا سبب آخر من أسباب تخلفنا، ولا يمكن أن ننافس الأمم الأخرى بدون العلم والهمة في طلب العلم، وهي موضوع هذه

القصة التي فيها الكثير من العبر والفكر، وهذه الشخصية التي كانت مثالا فريدا وقدوة لشبابنا في طلب العلم.

يقول الشافعي: «حق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار من العلم، والصبر على كل عارض دون طلبه، وإخلاص النية لله في إدراك علمه نصا واستنباطا، والرغبة إلى الله تعالى في العون عليه»، وقد لخصها الشافعي بهذه الأبيات:

أخي لن تنال العلم إلا بستة

سأنبئك عن تفصيلها ببيان

ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة

وصحبة أستاذ وطول زمان

فلقد قرأ بن حجر المعجم الصغير للطبراني في نهار، وهذا الكتاب يشتمل على نحو 1500حديث وقرأ أيضا السنن لابن ماجه في أربعة مجالس، بينما حفظ الشافعي القرآن في السابعة من العمر وحفظ الموطأ وهو في العاشرة وحفظ أحمد بن حنبل ألفألف حديث، وقال أبو حاتم الرازي «مشيت على قدمي في طلب العلم ألف فرسخ» والفرسخ بمقدار 3أميال

تقريبا وقال البخاري «كتبت عن ألف شيخ وعن كل واحد منهم عشرة آلاف حديث وأكثر»، وقال مكحول محدث وفقيه أهل الشام «طفت الأرض كلها في طلب العلم»، وقال عبد الله بن محمد فقيه العراق «قرأت المغني 23مرة» وهو كتاب يقع في 15مجلدا، وجالس نعيم المجمر أبا هريرة 20 سنة، وقال جرير «جلست إلى الحسن سبع سنوات لم أخرم منها يوما واحدا».

هذه وقفات وبعض نماذج طلب العلم في ذلك الزمن الذي لم يكن به مدارس ولا جامعات منتشرة هنا وهناك، ولم تكن التكنولوجيا متوفرة فلا يوجد إنترنت ولا وسائل تواصل اجتماعي ولا سيارات أو قطارات أو طائرات ولم تكن به مطابع لنسخ الكتب فكان هؤلاء طلاب العلم الذين نقلوا لنا كل علومهم ودروسهم وظلت محفوظة لنا ليوم الناس هذا، فهل سمعنا عن كتبهم أو أتعبنا أنفسنا في مطالعتها أو حتى البحث عنها والاستزادة منها؟.

ومن الشخصيات التي هي مضرب للهمة في طلب العلم، والتي كرست حياتها للعلم والعمل الصالح، وسيرة حياته عبارة

عن مجموعة لا متناهية من العبر والدروس، فكان لا يركب دابة أبدا ويتعمد المشي للخير طلبا للأجر على قدر المشقة، حتى أنه مشى من قرطبة إلى إشبيلية مع ضعيف مسكين ليؤازره في مظلمة له وهي مسافة تبلغ 200كيلومتر، كما أنه كان إماما مجتهدا صالحا، ربانيا صادقا، مخلصا منقطع النظير، قليل المثل، ورعا فاضلا زاهدا، طالبا للعلم فقد ألف «التفسير» و«المسند» الذي لا نظير لهما حتى وصف الإمام بن حزم تفسيره للقرآن الكريم بقوله: «أقطع أنه لم يؤلف في الإسلام مثل تفسيره في القرآن، لا تفسير الطبري ولا غيره»، وقال أيضا في المسند «مسند بقي روي فيه ألف وثلاثمائة صاحب ونيف ورتب حديث كل صاحب على أبواب الفقه، فهو مسند ومصنف، وما أعلم بهذه الرتبة قبله، مع ثقته وضبطه، وإتقانه واحتفاله في الحديث».

كان عالما مشهورا في بلاد الأندلس، وكان يعيش في قرطبة الحاضرة الإسلامية العظيمة، والتي كانت تعرف بـ «جوهرة العالم» بكل ما فيها من حياة وقصور ومساجد وعلماء وعلم، فالذي كان يريد الدنيا يجد لها في قرطبة، والذي كان

يريد الآخرة يجد لها كذلك في قرطبة، ولكنه قرر أن ينطلق إلى بغداد ماشيا على قدميه وهو في عمر السابعة والعشرين حتى يتعلم على يد العلامة الجليل أحمد بن حنبل والذي كان أعلم أهل الأرض في زمانه بالسنة النبوية والفقه الإسلامي، وقد يتساءل البعض لماذا يقطع كل هذه المسافة من قرطبة إلى بغداد ماشيا على قدميه!؟ ولماذا يطلب العلم وهو عالم مشهور في الأندلس فهو لا يحتاج أن يطور علمه وتعليمه وفي هذا العمر الكبير!؟ لأنه كان فقيرا جدا معدما ولا يجد المال لشراء دابة تنقله لبغداد، ولأنه يعلم أنه ما دامت به حياة لا بد وأن يستزيد من العلم، إننا نتحدث عن شخصية عظيمة من أعظم علماء المسلمين والذي أكاد أن أجزم أن الكثير منا لم يسمعوا أصلا عن اسم هذا العالم الجليل البحر ولا عن تاريخه ولا حياته غير كنيته التي اشتهر بها «القرطبي»، إنه العلامة «بقي بن مخلد» رحمه الله.

بدأ رحلته من قرطبة ماشيا على قدميه فكان يقطع بضع كيلومترات حتى يصل لمدينة فيبقى فيها يعمل بعض الوقت حتى يكسب المال ليستطيع أن ينفق على نفسه في الطريق

ليكمل رحلته لمدينة أخرى ويعمل أيضا بها فيكسب بعض المال ويكمل رحلته لمدينة ثالثة، وهكذا حتى وصل لبغداد فأكمل مشوار رحلته في سنتين ماشيا على قدميه من قرطبة لبغداد كل ذلك الوقت والتعب والجهد حتى يتعلم على يد أحمد بن حنبل رحمه الله.

ولكن قبل أن يصل لبغداد سمع عن الفتنة التي حصلت في بغداد وعن حبس الإمام أحمد بن حنبل في بيته فعلم بقي بن مخلد رحمه الله أنه لن يستطيع أن يصل ويتعلم على يد الرجل الذي من أجله قطع الآلاف من الأميال وتحمل من أجله هذا الجهد والتعب والمشقة بعد أن ترك كل شيء وراءه، أهله وأولاده وبلده، فاهتم هما شديدا.

دخل الإمام بقي بن مخلد بغداد وأجر بيتا ليرتاح فيه تلك الليلة، وفي اليوم التالي أخذ يبحث عن مجالس العلم فدخل المسجد فإذا برجل يتكلم في علم الرجال «علم الجرح والتعديل»، وعلم الرجال أو علم الجرح والتعديل هو العلم الذي يهتم بحال رواة الحديث ويحدد أمانتهم وصدقهم وقوة حفظهم فيقول عن هذا «ثقة» وعن آخر «ضعيف»، وآخر «كذاب»،

وآخر «صدوق»، وهذا ينسى وهكذا.

وهذا الرجل كان يحيى بن معين صاحب الإمام أحمد بن حنبل ورفيقه في طلب العلم فجلس بقي بن مخلد في هذه الحلقة ليتعلم منه ويستزيد وقد كانت حلقة كبيرة وفيها كثير من طلبة العلم، وفي يوم من الأيام استطاع بقي بن مخلد أن يصل ليحيى بن معين فأخذ يسأله عن بعض الرجال فأجابه بن معين وسأل بن مخلد مرة أخرى وأجاب بن معين فقال طلبة العلم لبقي بن مخلد «يكفيك رحمك الله غيرك له سؤال»!، فقال بقي بن مخلد: بقي لي سؤال واحد عن رجل واحد، وسأل قائلا: إلا أسألك عن أحمد بن حنبل؟ فنظر إليه بن معين كالمتعجب فقال: مثلي يسأل عن أحمد بن حنبل!! ذاك إمام المسلمين، ذاك خير المسلمين، ذاك فاضل المسلمين وأخذ يعدد أوصاف أحمد بن حنبل فشعر بن مخلد أنه فاته الكثير والكثير ليتعلمه من هذا الرجل.

فخرج بن مخلد من المسجد يستدل على بيت أحمد بن حنبل حتى وجده فذهب إليه وطرق الباب فخرج بن حنبل فسأله من أنت؟ فقال بن مخلد: رجل غريب بعيد عن بلده،

طالب حديث، ولم تكن رحلتي إلا إليك لأتعلم منك.

فقال بن حنبل: وأين موضعك؟ فرد بن مخلد المغرب الأقصى فقال بن حنبل: أفريقية؟ فرد عليه بن مخلد قائلا: أبعد من أفريقية، أنا من الأندلس، فقال بن حنبل: إن موضعك لبعيد، وما كان شيء أحب إلي من أن أحسن عون مثلك، وأبذل كل ما أستطيع غير أنني ممتحن بما لعله بلغك، وأنا الآن لا يسمح لي بملاقاة الناس والتحدث إليهم، فقال بن مخلد: قد بلغني ما أنت عليه، وأنا مجهول العين عنكم فلا يعرفني أحد فإن أذنت لي أن آتي كل يوم في ثياب الفقراء، فأقول عند بابك ما يقوله الفقراء والشحاذون، فتخرج إلي وتحدثني كل يوم بحديث أو اثنين أو ثلاثة من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، فوافق بن حنبل على ذلك، انظروا لهذه الهمة العالية وهذا الجهد الشاق حتى يحصل على حديث أو اثنين أو ثلاثة باليوم فقط فيحفظهم، وظل بن مخلد على هذه الحال سنة أو سنتين أو أكثر يستزيد من العلم بمشقة مستعينا بالله صابرا مجاهدا، وهو كل يوم يذهب لابن حنبل يطلب العلم.

مسند أحمد بن حنبل موجود الآن في كل مكان تقريبا، موجود في الإنترنت، موجود في معظم المكتبات، موجود على أقراص صلبة، يا ترى هل بذلنا جهدا لنقرأ حديثا أو اثنين من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلما فعل بقي بن مخلد الذي قطع الأميال حتى يصل لأحمد بن حنبل ويحفظ حديثا أو اثنين كل يوم منقطعا عن أهله يتعلم هذا الحديث ويحفظه، وهو بين أيدينا ونحن نزهد في طلب هذا العلم وتعلمه؟ علينا مراجعة أنفسنا وماذا قدمنا لآخرتنا.

ظل بقي بن مخلد على حاله يستزيد وينهل من علم أحمد بن حنبل في حبسه حتى أراد الله عز وجل أن ترفع الغمة عن المسلمين فتولى المتوكل على الله الحكم فرفع الفتنة وأقام السنة، وأخرج أحمد بن حنبل من سجنه وأعاده لدروسه ومكانته فرجع بن حنبل لدروسه يعلم الناس ويفقههم في دينهم وبقي بن مخلد معهم يستزيد من علم هذا العالم الجليل، فكان كلما رأى ابن حنبل بقي بن مخلد أفسح له المجال وقربه إلى جواره وقص على الناس قصته، وقال هذا من طلاب العلم الحقيقين الذين أتوا من مكان بعيد، ولم يمنعه

حبسي ولا غيره من طلب العلم.

وفي يوم من الأيام مرض بقي بن مخلد وظل في بيته ولم يخرج للدرس كعادته فسأل عنه أحمد بن حنبل، فقالوا له مريض في بيته فخرج بن حنبل بنفسه ليزوره في بيته ويطمئن عليه وخرج أهل بغداد من خلفه، فلقد كان ابن حنبل إذا سار الناس خلفه، وإن تكلم ابتدر الناس أقلامهم وسجلوا ما يقوله، فلما دخل بن حنبل بيت ابن مخلد ارتج البيت بأهله من كثرة من ساروا خلفه فعاده في فراشه وواساه وقال له بعض الكلمات الطيبة.

وبعد هذا بفترة طويلة خرج بقي بن مخلد من بغداد بعلم غزير من علم أحمد بن حنبل رحمهما الله جميعا، ولكن من الغريب بل العجيب في حياة هذا الرجل أنه لم يرجع لأهله بل ذهب إلى المدينة ومكة والشام ومصر ليحصل كل العلوم من كل هذه البقاع ثم عاد بعد ذلك لبلاد الأندلس ليجلس إليه ويستمع أولئك الذين كانوا يعلمونه وعلى رأسهم «يحيى بن بكير» وهو أحد كبار علماء الأندلس الذين كانوا يعلمون بقي بن مخلد.

وبعد وصول بن مخلد للأندلس أخذ بكتابة كتابه المشهور «مسند بقي بن مخلد» والذي جمع فيه أحاديث تزيد عن ما جمعه أحمد بن حنبل في مسنده، فيقول بن حزم عن هذا «أنه في هذا الكتاب روى عن أكثر من 1600صحابي، ويقول أنه روى عن شيوخ يزيد عن 284شيخا ليس فيهم عشرة ضعفاء»، وفي هذا المسند كتب أكثر من ثلاثين ألف حديث، وهذا يزيد على أحاديث مسند أحمد بن حنبل، فهو أكبر مسند ألف في تاريخ الإسلام، كما ألف كتابا في فتاوى الصحابة والتابعين وهذا الكتاب كما يقول الرواة أنه أكبر من مصنف بن أبي شيبة وأكبر من مصنف سعيد بن منصور وهذه مصنفات ضخمة وكبيرة جدا، وقال الذهبي رحمه الله عندما ذكر ترجمة بقي بن مخلد قائلا: «من مناقبه العجيبة أنه شهد سبعين غزوة في سبيل الله»، فسبحان الله بعد كل هذه الحياة العلمية، ومع ذلك كان منشغلا إلى جوار طلب العلم والتدريس، كان منشغلا أيضا في الجهاد في سبيل الله.

غرس بقي بن مخلد غرسا طيبا في الأندلس فأصبحت من بلاد الحديث وليس هناك أحد من دارسي الحديث في

بلاد الأندلس إلا وبقي بن مخلد له فضل عليه ولكن للأسف الشديد أنه لم يبق إلا عدد قليل جدا من مؤلفات بقي بن مخلد وذلك عندما دخل الصليبيون بلاد الأندلس، وأسقطوا الخلافة الإسلامية فيها، قام الصليبيون بحرق عدد كبير من الكتب التي كانت في المكتبات العملاقة في الأندلس ومن هذه الكتب كانت معظم كتب بقي بن مخلد وحتى الكتب التي ذهبت لمكتبة بغداد أغرقها التتار في نهر دجلة، فضاع خير كثير وجهد كبير وعلم عظيم ولم يبق إلا عدد قليل من كتب هذا العالم الجليل.

«إذا رأيت العلماء على أبواب الملوك فقل بئس الملوك وبئس العلماء، وإذا رأيت الملوك على أبواب العلماء فقل نعم الملوك ونعم العلماء»

علي بن أبي طالب

جمع الصحيح في كتاب

تقول الدكتورة «سهير السكري» عند قراءتي لكتاب «الإسلام الثوري» للكاتب جيسين حيث يقول «أن الإنجليز والفرنسين عندما انهارت دولة الخلافة وورثوها كمحتلين قاموا مشتركين بعمل دراسة عن سبب قوة الإنسان أو الفرد المسلم والتي أدت هذه القوة الجبارة إلى أن المسلمين غزوا العالم من المحيط الأطلنطي إلى فينا وضواحي باريس، إلى الهند وأدغال أفريقيا، فوجدوا أن الطفل المسلم من عمر 3سنوات إلى 6 سنوات يذهب إلى الكتاب ويحفظ القرآن وبعد أن يحفظ القرآن من 6 إلى 7سنوات، يدرس ألفية بن مالك وهي 1000 بيت شعر والتي بها كل قواعد اللغة العربية الفصحى».

إذا لدينا الآن طفل عمره 7سنوات وهذه محصلته اللغوية فهو طفل ليس عاديا بالنسبة للطفل الغربي، بل هو طفل «سوبر» جبار العقل والذكاء، حيث أن عدد كلمات القرآن

حسب تفسير بن كثير هي سبعة وسبعون ألفا وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة.
فخلص الإنجليز والفرنسين من هذه الدراسة المشتركة أن سبب قوة الفرد المسلم الجبارة هي القرآن وكتاتيب تحفيظ القرآن، فقامت فرنسا بإلغاء الكتاتيب في أفريقيا وجميع المدارس التي تحت سيطرتها مثل لبنان وسوريا، وإن بقي بعض الكتاتيب في سوريا قاومت به المحتل لمدارسها.
أما الإنجليز فقالوا شيئا مختلفا وهو أن المصرين هم من اخترعوا الدين من قبل الميلاد وإن قلنا لهم أننا سنلغي الكتاب وتحفيظ القرآن فلن نستطيع الوقوف أمامهم، وبالتالي سنقوم بالقضاء على القرآن بسوء السمعة فقاموا بعمل مدارس أجنبية لأولاد الأغنياء لكن لن يتم فيها تدريس المنهج الإنجليزي بل يجب أن يكون أضعف بكثير لتكون لغة الأسياد للأسياد فقط، وحتى لا يستطيع الطفل العربي التوغل في العلوم والمعرفة بسبب ضعف تحصيله للغة بريطانيا والغرب، وبعد ذلك أنشأوا المدارس الحديثة وكان عمر الطفل بها من 6سنوات وبالتالي ضاعت من الطفل أهم فترة تحصيل في حياته وهي من تاريخ

ولادته إلى 7سنوات تقريبا، وبالتالي نجح الإنجليز في ضياع فترة تحصيل الطفل العربي اللغوية، وعندما يذهب الطفل للمدرسة في عمر 6سنوات سيجد كلمات باللغة العربية الفصحى، وهذا غير ما تعلمه في البيت من كلمات عامية مختلفة تماما عن المدرسة فيجد الطفل نفسه واللغة العربية بالنسبة له عبارة عن لغة غريبة عليه وصعبة التحصيل ويبدأ مرحلة بغض لغته من الصغر. وبالتالي لن يتحدث اللغة العربية بطلاقة، وضاعت منه أكثر من 77000كلمة لغوية في عمر مبكر جدا.

وهذه قصة لشخصية عظيمة وخالدة، كانت البداية في بخارى، إحدى مدن أوزباكستان الآن، حيث ولد «أمير أهل الحديث» وأحد أكبر الحفاظ الفقهاء وصاحب أصح كتاب بعد القرآن الكريم، والذي يعتبر أوثق الكتب الستة الصحاح: محمد بن إسماعيل البخاري، الذي نشأ يتيما في كنف أمه التي قامت على تربيته أحسن تربية، وهنا يجب أن نرى أمهات المسلمين أهمية دور الأم في جهادها لرفعة الأمة والنهوض بها.

لم تكن بداية البخاري ككل الأطفال، إذ ابتلاه الله عز وجل بفقدان البصر، ولكن أمه الصالحة لم تقطع صلتها بربها فدعت الله راجية أن يرد على صبيها بصره، وفي ليلة من الليالي رأت أمه إبراهيم عليه السلام يبشرها في المنام يقول لها: «يا هذه، قد رد الله على ابنك بصره لكثرة دعائك»، فأصبح محمد وقد رد الله عليه بصره.

وبعد أن من الله عليه برجوع بصره، مال البخاري لطلب العلم وحفظ الأحاديث وهو حديث السن، فحفظ القرآن وهو في العاشرة وبدأ بعدها في حفظ الحديث وملازمة الدروس والاختلاف على العلماء والشيوخ، يقول محمد بن أبي حاتم، وهو من رواة الحديث: قلت لأبي عبد الله (محمد بن إسماعيل): كيف كان بدء أمرك؟ قال: ألهمت حفظ الحديث وأنا في المكتب (الكتاب). فقلت: كم كان سنك؟ فقال: عشر سنين أو أقل، ثم خرجت من المكتب بعد العشر، فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره، فقال يوما فيما كان يقرأ للناس: سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم. فقلت له: إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم، فانتهرني، فقلت له: ارجع إلى

الأصل، فدخل فنظر فيه ثم خرج فقال لي: كيف هو يا غلام؟ قلت: هو الزبير بن عدي عن إبراهيم، فأخذ القلم مني وأحكم (أصلح) كتابه، وقال: صدقت. فقيل (لمحمد بن إسماعيل): ابن كم كنت حين رددت عليه؟ قال: ابن إحدى عشرة سنة.

وما كاد محمد يبلغ السادسة عشرة من عمره حتى حفظ كتب بن المبارك ووكيع، وغيرها من كتب الأئمة المحدثين، وسمع من قرابة ألف شيخ حتى بلغ محفوظه آلاف الأحاديث وهو لا يزال غلاما..

وكانت بخارى آنذاك مركزا من مراكز العلم، تمتلئ بحلقات المحدثين والفقهاء.

وفي يوم من الأيام وفي إحدى حلقات الحديث، قال بعض الدارسين معه إنا نراك تدرس معنا ولا تكتب شيئا من الدروس، فلعلك لا تحفظ شيئا مما درسناه، فقال محمد اعرضوا علي ما كتبتم، فأخرجوا دفاترهم فقرأ محمد الأحاديث وهم يراجعون ما كتبوه فقرأ 15ألف حديث حفظا عن ظهر قلب، فقد كان محمد حاد الذكاء ويتمتع بذاكرة قوية.

ثم ارتحل محمد بن إسماعيل لمكة بصحبة أمه وأخيه أحمد لأداء فريضة الحج، وبعد انتهاء مناسك الحج وآن الأوان

للعودة لبخارى، مكث محمد في مكة طلبا للعلم بعد أن فتح له باب من أبواب العلم ينهل منه من منبعه ورافده الأول، وعادت أمه وأخوه أحمد لبخارى، وفي الحرمين الشريفين، كانت بداية رحلة جديدة لمحمد في طلب العلم، رحلة شاقة للقاء العلماء وطلب الحديث وبدأ ينهل من الشيوخ والعلماء، وينطلق بعدها متنقلا بين حواضر العالم الإسلامي.. يجالس العلماء ويحاور المحدثين، ويجمع الحديث، ويعقد مجالس للتحديث، ويتكبد مشاق السفر والانتقال.. لم يترك حاضرة من حواضر العلم إلا نزل بها وحفظ عن شيوخها، وربما حل بالبلد الواحد مرات عديدة، يغادره ثم يعود إليه مرة أخرى.

اشتهر البخاري شهرة واسعة حول العالم الإسلامي، وأقر له أقرانه وشيوخه ومن جاء بعده من العلماء بالتقدم والإمامة في الحديث وعلومه حتى لقب بأمير المؤمنين في الحديث.

وألف محمد بن إسماعيل وهو في الثامنة عشر كتاب التاريخ الكبير، وفي سن الثالثة والعشرين قرر محمد أن يكتب كتابا لا يضم فيه إلا ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأحاديث وابتدأ محمد بن إسماعيل بتأليف هذا

الكتاب وهو في هذا السن الصغير، هذا القرار الصعب يحتاج لسعة علم كبيرة وجهد عظيم ووقت طويل يقول البخاري: «ما وضعت في كتاب الصحيح حديثا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين»، فأخذ بتأليف هذا الكتاب رحلة عمل طويلة دامت 16سنة في جمع الأحاديث الصحيحة فقط بعد مراجعتها، والتأكد من صحتها ولم يتعجل محمد في إخراجه للناس بعد أن فرغ منه، ولكن عاود النظر فيه مرة بعد أخرى، ونقحه وصنفه وعرضه على أحمد بن حنبل وعلي بن المديني فقالا: «هذا الكتاب حجة على علماء الإسلام بكامله» وقد جمع محمد بن إسماعيل في هذا الكتاب 7275حديثا من أصل ستمائة ألف حديث كان يحفظها، ويعد هذا الكتاب أوثق الكتب الستة الصحاح والذي أجمع علماء أهل السنة والجماعة أنه أصح الكتب بعد القرآن الكريم، والذي احتل مكانه في القلوب حتى كان يقرأ في المساجد كما تقرأ المصاحف، والذي يتدارسه عامة علماء المسلمين ويستفيد منه كل المسلمين على وجه الأرض والذي أسماه الجامع الصحيح والمشهور باسم «صحيح البخاري».

والذي قال عنه أبو عيسى الترمذي (صاحب جامع الترمذي): «لم أر بالعراق ولا بخراسان في معنى العلل والتاريخ ومعرفة الأسانيد أعلم من محمد بن إسماعيل».

وقال عنه قتيبة بن سعد: «جالست الفقهاء والعباد والزهاد، فما رأيت من عقلت مثل محمد بن إسماعيل، وهو في زمانه كعمر في الصحابة».

هذا هو البخاري رحمه الله، الذي أفنى حياته في طلب العلم مخلفا نورا تستضيء به الأمة الإسلامية، وتظل تنهل منه وتعول عليه إلى يوم القيامة، رضي الله عن الامام البخاري وأرضاه وجعل الجنة مثواه، هذه الصورة توضح الهمة في طلب العلم فانظروا كيف كان العلماء حريصون على هذا الدين العظيم.

وأنهي هذه القصة بالكلمة العظيمة التي قالها الشاطبي «إن الله عز وجل وعد بحفظ قرآنه وإن حفظ السنة من حفظ القرآن»، فرحم الله البخاري الذي نفعنا الله بجهده وعلمه.

«إن التاريخ في ظاهره لا يزيد عن الإخبار، ولكن في باطنه نظر وتحقيق»

ابن خلدون

قرار كتابة أحداث الدنيا

انقضى زمن الخلفاء الراشدين، ولم يدون كتاب إلا ما كان من أمر كتابة المصحف، وكان مرجع الناس في أمر دينهم ودنياهم كتاب الله وسنة رسوله، فإذا اشتبه عليهم أمر من أمور الدين رجعوا إلى الخلفاء وفقهاء الصحابة.

ثم لما انتشر الإسلام في زمن بني أمية واختلطت العرب والعجم، فسدت فيهم ملكة اللسان العربي، وفشا اللحن، وأشفقوا على القرآن من التحريف، دونوا النحو، وكان أول من كتب فيه أبو الأسود الدؤلي، وقد تلقى مبادئه من الإمام علي، وأخذ عنه فتيان البصرة، وخصوصا الموالي إذ كانوا أحوج الناس إلى النحو، واشتغل به أهل الكوفة بعد أن فشا في البصرة.

ولم ينقضي هذا العصر حتى اشتغل به طبقتان من البصرين وطبقة من الكوفين، ثم لما حدثت الفتن وتعددت

المذاهب والنحل وكثرت الفتاوي والرجوع فيها إلى الرؤساء، ومات أكثر الصحابة، خافوا أن يعتمد الناس على رؤسائهم ويتركوا سنة الرسول، فأذن عمر بن عبد العزيز لأبي بكر محمد بن عمرو بن حزم في تدوين الحديث، وانقضى هذا العهد ولم يدون فيه من علوم اللغة والدين غير النحو والحديث، وبعض التفسير، أما العلوم الأخرى فيروى أن خالد بن يزيد بن معاوية ترجم له بعض كتب اليونان ووضع كتابا في الطب وأن معاوية استقدم عبيد بن شبرمة من صنعاء فكتب له كتاب «الملوك وأخبار الماضي» وأن وهب بن منبه وموسى بن عقبة كتبا في ذلك أيضا، ولم يبلغ التصنيف والتدوين شأنا يذكر». (من كتاب قصص العرب)

في طبرستان من أرض فارس «شمال إيران» وفي عام 224 للهجرة، رزق جرير بن يزيد غلاما أسماه محمد، نشأ محمد وتربى في أحضان ورعاية أبيه وأولاه الرعاية الكاملة ووجهه للعلم وحفظ القرآن الكريم وخاصة بعدما رأى والده رؤيا تفاءل بها خيرا فقد رأى أبوه في منامه «أن ابنه واقف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يرمي الأحجار بين يدي رسول

الله» فقص الأب هذه الرؤيا على المعبرين الذين يفسرون الرؤى فقالوا له: «أن هذا الغلام سيدافع عن سنة الرسول صلى الله عليه وسلم»، فزاد اهتمام أبيه به فحثه على طلب العلم والاجتهاد والاستزادة من منبعه والانكباب على تحصيله والعمل به، فظهرت على هذا الغلام سمات النبوغ الفكري والذكاء الخارق والعقل المتقد وأدرك والده ذلك، فعمل على تنميتها وساعده على استغلال مواهبه، ووفر له المال للإنفاق على العلم والتعليم وسرعان ما حقق محمد طموحات وأحلام والده حتى حفظ القرآن وهو ابن السابعة وصلى إماما في الناس وهو في الثامنة من عمره، وكتب الحديث وهو في التاسعة، طفل في عمر الثامنة يصلي إماما في المسلمين، انظر لهذه التربية الصحيحة التي أنتجت جيلا عظيما، يجب علينا الاهتمام بالعلم وتربية أبنائنا التربية الصحيحة والنشأة السليمة حتى ننتج جيلا عظيما محبا للعلم لا أن نوجه فراغهم في اللعب واللهو فقط، ونحن الآن نرى بعض المربين وقد أساؤوا في توفير كل وسائل الترفيه والتسلية، وكل وسائل التقنية لأبنائهم حتى أصبح هذا الجيل لا يرى أبعد من أنفه، وأقصى

أحلامه وطموحاته الراحة والركون إلى الدعة.

نشأ محمد بن جرير على هذه التربية الصحيحة فحفظ القرآن والسنة النبوية وسافر طالبا للعلم، فاتجه إلى الري وهي في بلاد فارس وتقع حاليا قرب طهران فدرس فيها على أيدي علمائها، واتجه بعدها إلى بغداد والبصرة والكوفة والشام ثم اتجه إلى مصر، ومكث فيها مدة من الزمن يتعلم وينهل من العلوم حتى أصبح عالما في مصر، ثم عاد بعد ذلك إلى بغداد وكان محمد يتمتع بحافظة نادرة ويجمع عدة علوم ويحفظ موضوعاتها وأدلتها وشواهدها، مثل الحديث والفقه، والتفسير والشعر، والنحو والصرف، والرياضيات والجبر، فأصبح محمد بن جرير بحرا متفجرا من العلم والذكاء، والفطنة والاستيعاب، وكان على جانب كبير من الورع والزهد غير مكترث بمتاع الدنيا ومفاتنها وكان يكتفي بقليل القليل، هذا هو إمام من أئمة المسلمين، من أهل السنة والجماعة مؤرخ ومفسر وصاحب أكبر كتابين في التفسير والتاريخ وهو من أكثر علماء الإسلام تأليفا وتصنيفا، إنه «محمد بن جرير الطبري».

هذا العالم الجليل اتخذ قرارا جريئا جدا وفريدا من نوعه، وهذا القرار يتمثل في كتابة وتسجيل كل أحداث الدنيا في كتاب، أي منذ أن خلق آدم وحتى الزمن الذي يعيش فيه، وكان هذا القرار جريئا جدا لأنه أول محاولة في الاسلام لتسجيل جميع الأحداث وجمعها في كتاب واحد ولأن هذا الأمر يحتاج إلى طاقات وأموال وأوقات طويلة، وغزارة في العلم والجهد والفكر، وصعوبة الحصول على السند الصحيح في الأحداث التاريخية، فكان هذا القرار فريدا وجريئا وصعبا للغاية.

فشرع الطبري في كتابة كتابه الذي أسماه «تاريخ الأمم والملوك» فنظم كتابه بترتيب السنوات والأحداث التي وقعت في كل بقاع الدنيا في كل سنة بسندها، أي بمعنى أنه ينقل القصة عن فلان عن فلان حتى تنتهي إلى الذي رأى القصة بعينه أو سمعها بأذنه، وكان يسجل الرواية بأكثر من سند لربما يكون هذا السند ضعيفا أو سقيما وهذا السند قويا، فكان يسجل كل شيء وصل إليه وعلمه فيذكره في كتابه بسنده ومتنه، وقد يسبب هذا التكرار مللا لدى القارئ البسيط عند

قراءته لهذا الكتاب لأنه يرى تكرار الرواية أكثر من مرة وبأسانيد مختلفة، وهذا من عظمة الطبري ومن الجهد البارع الذي بذله ليحقق الرواية، وحتى نعرف قوتها من ضعفها وينقل ما حدث للمسلمين ليستفيدوا منه بعد ذلك، وحرص الطبري في كتابه أيضا على نقل الوثائق التاريخية التي تمت وكتبت بنصها وكلماتها أي بمعنى أنه إذا تمت معاهدة بين المسلمين والفرس مثلا فإن الطبري كان حريصا على نقل الوثيقة والمعاهدة التي تمت وكتبت وبكلماتها، وكان حريصا حتى على تسجيل الأشعار التي قيلت في المعارك والمناسبات، والتي قيلت أمام الأمراء، وفوق هذا كله فإن الطبري لم يكتب تاريخ المسلمين فقط، بل كان يكتب تاريخ الأمم المعاصرة للإسلام، وتاريخ الأمم التي سبقت الإسلام، وتاريخ العرب قبل الإسلام، وتاريخ الفرس وملوك الفرس وتاريخ الهند وتاريخ الرومان، حتى نأخذ العبر ونفهم تاريخ الأمم ونقف على أسباب نهوضها وسقوطها، فكتب الطبري كتابه منذ خلق الله آدم إلى سنة 302للهجرة.

ألف الطبري كتابه الضخم الذي يقع في أكثر من 10

مجلدات ضم فيه كل تاريخ الدنيا والعلوم الكثيرة، وأصبح هذا الكتاب مرجعا رئيسيا لكل من كتب ودرس التاريخ، وليس هذا كتاب الطبري الوحيد بل له كتب كثيرة في الفقه والتفسير والعقيدة والأخلاق والشعر، وتوفي الطبري في سن الخامسة والثمانين، وما زالت كتبه خالدة حاضرة بيننا، وما زال العالم ينهل من علمه وكتبه.

وفي تاريخ الطبري هناك بعض المآخذ التي تؤخذ عليه، وهو أنه لم يشترط ثبوت جميع ما نقله بل أخذ بمبدأ «من أسند فقد أحل» حيث يقول الطبري في مقدمة كتابه:

«فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجها في الصحة ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت ذلك من قبلنا، وإنما أتي من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا».

ترجم كتاب الطبري إلى الفارسية، وترجم أيضا إلى الفرنسية في عام 1836ميلادي، وقد أثنى كثير من العلماء على الطبري ومؤلفاته فقال بن الاثير: «أبو جعفر أوثق من نقل

التاريخ، وفي تفسيره ما يدل على علم غزير وتحقيق وكان مجتهدا في أحكام الدين لا يقلد أحدا، بل قلده بعض الناس وعملوا بأقواله وأعماله» وقال الإمام النووي: «أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل الطبري».

رحم الله الطبري وأسكنه فسيح جناته، يقول الإمام علي رضي الله عنه «ليس اليتيم من مات أبوه، بل اليتيم يتيم العلم والأدب».

«يا من أمرهم دينهم بالجهاد حتى يفتحوا العالم، ويهدوا البشر إلى دينهم، فقعدوا حتى فتح العدو بلادهم، وفتنهم عن دينهم! يا من حكم أجدادهم بالحق أقطار الأرض، وحكموا هم بالباطل في ديارهم وأوطانهم! يا من باع أجدادهم نفوسهم من الله بأن لهم الجنة، وباعوا هم الجنة بأطماع نفوس صغيرة، ولذائذ حياة ذليلة! يا أيها الناس: ما لكم نسيتم دينكم، وتركتم عزتكم، وقعدتم عن نصر الله فلم ينصركم، وحسبتم أن العزة للمشركبن، وقد جعل الله العزة لله ولرسوله وللمؤمنبن»؟

علي الطنطاوي

قرار الجهاد

«يحكى أن ملك الفرس أرسل رسالة إلى ملك الصين يطلب نجدته بعد هزيمته من قبل المسلمين، وعندما وصلت الرسالة سأل ملك الصين عن صفات المسلمين وعندما وصفوهم له، خاف ملك الصين ورفض تلبية الطلب وكتب إلى امبراطور الفرس قائلا: أنه لا شيء يمنعني من أن أبعث إليك بجيشي، ولكن هؤلاء القوم لو يحاولون هدم الجبال لهدموها ولو خلى سربهم أزالوني فسالمهم وارض منهم بالمساكنة، ولا تهجهم ما لم يهجوك».

في عام 366للهجرة الموافق 976ميلادي، ولي «ناصر الدين بن سبكتكين» ولاية غزنة، والتي تقع في أفغانستان، وكان يتمتع بكفاءة نادرة وهمة عالية وطموح عظيم، فأس الدولة الغزنوية، وأخذ في توسيع حدود دولته، وشرع في غزو أطراف الهند وسيطر على الكثير من الحصون والمعاقل هناك فقد

كان ناصر الدين بن سبكتكين مجاهدا عظيما وقائدا فذا فنجح في بسط نفوذه على البلاد المجاورة له وأس دولة قوية حتى وافته المنية في عام 387للهجرة الموافق 997ميلادي، فأخذت البيعة لابنه إسماعيل الذي كان يتصف بسوء التدبير وضعف الشخصية فاستضعفه الجند واستولوا عليه، واشتدوا عليه في الطلب حتى أنفذ خزائن أبيه فقام عليه أخوه الأمير محمود ثائرا، وتغلب عليه واستطاع أن يأخذ غزنة لنفسه وأعلن نفسة سلطانا على البلاد.

وعندما أمسك السلطان محمود مقاليد الحكم وبسط يده في البلاد، أظهر السنة وقمع المعتزلة، مشى في الناس بسيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأقام العدل وأحسن للرعية وعظم المشايخ وقربهم وأخذ مشورتهم.

وقد أقام السلطان محمود بن سبكتكين الخطبة للخليفة العباسي القادر بالله في بغداد، وأقره الخليفة سلطانا على ما تحته من بلاد خراسان والجبال، والسند والهند وطبرستان، وأرسل له الخليفة خلعة فاخرة جدا لم يرسل خليفة مثلها قط لأي سلطان من قبل، وخلع عليه الألقاب الكثيرة «يمين الدولة

وأمين الملة وناصر الحق وكهف الدولة»، وكان السلطان محمود بن سبكتكين حازما جادا في تطبيق شرع الله وتحريم المنكرات، فلا يتجرأ أحد على إظهار المعاصي في دولته، من خمر أو معازف أو أفكار ضالة، فعظمت منزلته وكبرت، فقصده العلماء من أقطار البلاد فعظمهم وقدرهم وأنزلهم منازلهم.

وبدأ السلطان محمود بن سبكتكين بتثبيت وتقوية دولته فكريا وسياسيا وعسكريا، فعمل على نشر السنة على ما تحت يده من البلاد، والقضاء على كل المذاهب والعقائد الضالة والمخالفة لعقيدة أهل السنة التي تعمل على التفرقة والانحلال في الأمة الإسلامية، وأدخل بلاد الغور في الإسلام «وهي في وسط أفغانستان الآن» وهي مناطق صحراوية شاسعة فأرسل القراء والدعاة والمعلمين لهذه المناطق لتعليم الناس الإسلام الصحيح، وأعلن خضوع دولته بالكامل للخلافة العباسية في بغداد.

وهكذا ظل السلطان يرتب للدولة من الداخل، ويقويها فكريا وعقائديا وعسكريا فأصبحت الدولة الغزنوية بأفضل أحوالها.

ظل فتح الهند حلما كبيرا يراود الخلفاء والسلاطين طيلة أربعة قرون، وأرسلت الحملات في ذلك والجيوش لفتح تلك البلاد الشاسعة إلى أن يسر الله فتح الشمال الهندي، ومهد الطريق للفاتحين من بعده على يد بطلنا السلطان المجاهد محمود بن سبكتكين، فجهز الجيوش ونظم الصفوف وأعد العدة، وذكر بعض المؤرخين العرب والمستشرقين أن السلطان أسس جيشا وصل قوامه إلى مائة ألف فارس مسلحين بأحدث وأفضل الأسلحة، وكان السلاح الرئيسي للجيش والذي كان يعتمد عليه السلطان هو سلاح الفيلة، وقاد السلطان ستة عشر حملة على شمال الهند وقضى على ملوكها الواحد تلو الآخر، فقاد حملة ضد الملك الهندي «جايبال» وكان هذا أكبر ملوك الهند على الإطلاق، وأكبر عقبة في وجه الدعوة الإسلامية، وقاد أيضا حملة ضد الملك «اندبال» وانتصر عليه، وواجه الملك «ناكركوت» وألزمه بدفع الجزية، وظل السلطان منتصرا في معاركه ضد ملوك الهند، متنقلا من نصر إلى نصر، وكان السلطان كلما انتصر على مملكة من الممالك حطم أصنامها، حتى قال الهنود: «إن هذه الأصنام والبلاد قد سخط عليها

الإله سومنات، ولو أنه راض عنها لأهلك من قصدها بسوء» فسأل السلطان محمود عن سومنات هذا؟ فقيل له: «إنه أعظم أصنام الهنود».

وكان الهنود يحجون إلى هذا الصنم ليلة خسوف القمر، فتجتمع إليه عوالم لا تحصى، فعزم السلطان محمود على هدم هذا الصنم وقاد جيوشه بنفسه إلى أن وصل إلى سومنات فاجتمع الهنود كلهم، وعرضوا على السلطان محمود بن سبكتكين أموالا جزيلة وهدايا عظيمة ليترك لهم هذا الصنم الأعظم، فأشار بعض الأمراء على السلطان محمود بقبول هذا العرض، وأخذ هذه الأموال وتعويض الخسائر الكبيرة التي أنفقها على هذه الحملات، فقال السلطان: «حتى أستخير الله عز وجل في ذلك»، فنام السلطان تلك الليلة بعدما استخار الله في ترك هذا الصنم الأعظم للهنود فلما أصبح قال: «إني فكرت في الأمر الذي ذكر، فرأيت أنه إذا نوديت يوم القيامة أين محمود الذي كسر الصنم؟، أحب إلي من أن يقال الذي ترك الصنم لأجل مال يناله من الدنيا»، وفي عام 416للهجرة الموافق 1026ميلادي وبعد معركة ومقاومة عنيفة قتل فيها

خمسون ألفا من الهنود الذين كانوا يدافعون عن معبد سومنات، انتصر السلطان ودخل المعبد وحطم الصنم الأكبر، فوجد في المعبد خزائن فيها الذهب والجواهر النفيسة، والتي كانت قيمتها تزيد على عشرين ألفألف دينار (أي عشرين مليون)، وكانت هذه القيمة أكبر بكثير من الأموال التي عرضها الهنود للسلطان نظير ترك الصنم الأكبر، وهنا أضاف السلطان لقبا جديدا لنفسه «قاهر الهند ومحطم الصنم الأكبر».

ظل السلطان محمود مجاهدا لا يكل ولا يمل، حتى توفي في غزنة في عام 431للهجرة والموافق 1030ميلادي، ودفن فيها وقبره ما زال معروفا، حكم السلطان 35سنة أقام فيها شعائر الإسلام، وبلغت رايته الجهادية أماكن كبيرة ووطئت خيله أماكن لم تطأها خيل المسلمين ورفع رايات الإسلام في بلاد لم يدخلها الإسلام من قبل.

فرحم الله السلطان محمود بن سبكتكين، قاهر الهند ومحطم الصنم الأكبر، والله إن الانسان ليشعر بالعزة والفخر، وهو يستمع لمثل هذه القصص عن أولئك الأبطال الذين ما عرف تاريخ البشر رجالا مثلهم أبدا.

«الرجال أربعة، رجل يدري ويدري أنه يدري فذلك عالم فاتبعوه، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فذلك ناثم فأيقظوه، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذلك مسترشد فأرشدوه، ورجل لا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فارفضوه»

أبو حامد الغزالي

يبقى الإسلام عزيزا

في كل عام تحتفل المدن الاسبانية بسقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين في إسبانيا بمهرجان يرفع فيه آخر علم رفع على قصر الحمراء، وفيه شعار «لا غالب إلا الله ولا إله إلا الله، محمد رسول الله»، في موكب عسكري، فالأمم تستذكر انتصاراتها، فصعود القمم يختلف عن نزولها.

ما إن أطلت سنة 1492للميلاد على سماء الأندلس حتى كانت الأوضاع قد تضعضعت فيها إلى الدرجة القصوى، وأصاب المسلمين هناك من تفرق كلمة وتصدع صف حتى احتل الصليبيون المدينة تلو الأخرى إلى أن وصلوا إلى أبواب غرناطة، فاضطر المسلمون إلى تسليم ومغادرة وطنهم الغالي، فتركوا وطنا لم يحسنوا الدفاع عنه، وأضاعوا أرضا إسلامية فتحت من قبل على أرواح المقاتلين الشهداء من المسلمين العظام، فاتجهت المواكب يمزقها الألم إلى جهات مختلفة من

المشرق والمغرب وكان في طليعة هذه المواكب الحزينة «أبو عبد الله محمد بن الأحمر»، آخر ملوك المسلمين بالأندلس الذي غادر بلده عبورا من قرية عذرة في اتجاهه لبلاد المغرب.

لم يرحل جميع المسلمين من بلادهم، بل ظل هناك الكثير من المسلمين بعد الوعود التي أخذوها من ملوك «أرجون» و«قشتالة»، ولكن من يقرأ التاريخ يعلم علم اليقين أن الصليبيين لا يوفون بالوعود، وينقضون العهود فأصدر رجال الدين المسيحين أوامرا بتعميد المسلمين وتحويل ديانتهم للمسيحية، ومن يرفض ذلك فمصيره إما القتل أو الهجرة ومصادرة كل أملاكه وأمواله، ومن الطبيعي أن يقرر الكثير منهم الهجرة بدينهم وعقيدتهم، فخرج كثير منهم تاركين أموالهم سيرا على الأقدام غير عابئين بمشاق الطرقات ومجاهل أخطار السفر، دون مال أو راحلة، وللأسف بعد خروجهم من غرناطة كانت تنتظرهم العصابات والجنود الاسبان فهاجموهم وقتلوا معظمهم، وعندما سمع المسلمون الآخرون بذلك آثروا البقاء في غرناطة عندما أدركوا أن خروجهم من اسبانيا يعني القتل، وبالتالي سيقوا لقوافل التعميد، وقد عرف المسلمون

الذين تنصروا بالمسيحين الجدد، وعرفوا أيضا بالموريسكوس، ومنعت اللغة العربية واللباس الإسلامي وأحرقت المصاحف وكتب التفسير والفقه والحديث، وحولوا المسجد الجامع في غرناطة إلى كنيسة، وهنا بدأت «محاكم التفتيش» التي كانت تبحث عن كل مسلم لتحاكمه على عدم تنصره، وكانت هذه المحاكم تصدر أحكاما على المسلمين الذين وجدوهم بالحرق أحياء في الساحات أمام الناس، وقد استمرت هذه الحملة الظالمة حتى العام 1577، وراح ضحيتها حسب بعض المؤرخين الغربيين أكثر من نصف مليون مسلم، حتى تم تعميد جميع الأهالي بالقوة.

إننا لا نخاف على الإسلام لأن الذي وعد بإظهاره على الدين كله هو الله الذي يقول للشيء كن فيكون، وهذه قصة واقعية عايشت محاكم التفتيش وظلمه، ولكن المسلم لا يبدل دينه مهما صعبت الظروف وكبرت المصاعب عليه.

يقول أحدهم: كنت يومئذ صغيرا، لا أفقه شيئا مما كان يجري في الخفاء، ولكني كنت أجد أبي رحمه الله يضطرب، ويصفر لونه، كلما عدت من المدرسة، فتلوت عليه

ما حفظت من «الكتاب المقدس»، وأخبرته بما تعلمت من اللغة الإسبانية، ثم يتركني ويمضي إلى غرفته التي كانت في أقصى الدار، والتي لم يكن يأذن لأحد بالدنو من بابها، فلبث فيها ساعات طويلة، لا أدري ما يصنع فيها، ثم يخرج منها محمر العينين، كأنه كان يبكي بكاء طويلا، ويبقى أياما ينظر إلي بلهفة وحزن، ويحرك شفتيه، فعل من يهم بالكلام، فإذا وقفت مصغيا إليه أعطاني ظهره، وانصرف عني من غير أن يقول شيئا، وكنت أجد أمي تشيعني كلما ذهبت إلى المدرسة، حزينة دامعة العين، وتقبلني بشوق وحرقة، ثم لا تشبع مني، فتدعوني فتقبلني مرة ثانية، ولا تفارقني إلا باكية، فأحس نهاري كله بحرارة دموعها على خدي، فأعجب من بكائها ولا أعرف له سببا، ثم إذا عدت من المدرسة استقبلتني بلهفة واشتياق، كأني كنت غائبا عنها عشرة أعوام، وكنت أرى والدي يبتعدان عني، ويتكلمان همسا بلغة غير اللغة الإسبانية، لا أعرفها ولا أفهمها، فإذا دنوت منهما قطعا الحديث، وحولاه، وأخذا يتكلمان بالإسبانية، فأعجب وأتألم، وأذهب أظن في نفسي الظنون، حتى أني لأحسب

أني لست ابنهما، وأني لقيط جاءا به من الطريق، فيبرح بي الألم، فآوي إلى ركن في الدار منعزل، فأبكي بكاء مرا. وتوالت علي الآلام فأورثتني مزاجا خاصا، يختلف عن أمزجة الأطفال، الذين كانوا في مثل سني، فلم أكن أشاركهم في شيء من لعبهم ولهوهم، بل أعتزلهم وأذهب، فأجلس وحيدا، أضع رأسي بين كفي، واستغرق في تفكيري، أحاول أن أجد حلا لهذه المشكلات.. حتى يجذبني الخوري من كم قميصي، لأذهب إلى الصلاة في الكنسية.

وولدت أمي مرة، فلما بشرت أبي بأنها قد جاءت بصبي جميل، لم يبتهج، ولم تلح على شفتيه ابتسامة، ولكنه قام بجر رجله حزينا ملتاعا، فذهب إلى الخوري، فدعاه ليعمد الطفل، وأقبل يمشي وراءه، وهو مطرق برأسه إلى الأرض، وعلى وجهه علائم الحزن المبرح، واليأس القاتل، حتى جاء به إلى الدار ودخل به على أمي.. فرأيت وجهها يشحب شحوبا هائلا، وعينيها تشخصان، ورأيتها تدفع إليه الطفل خائفة حذرة.. ثم تغمض عينيها، فحرت في تعليل هذه المظاهر، وازددت ألما على ألمي.

حتى إذا كان ليلة عيد الفصح، وكانت غرناطة غارقة في العصر والنور، والحمراء تلألأ بالمشاعل والأضواء، والصلبان تومض على شرفاتها ومآذنها، دعاني أبي في جوف الليل، وأهل الدار كلهم نيام، فقادني صامتا إلى غرفته، إلى حرمه المقدس، فخفق قلبي خفقا شديدا واضطربت، لكني تماسكت وتجلدت، فلما توسط بي الغرفة أحكم إغلاق الباب، وراح يبحث عن السراج، وبقيت واقفا في الظلام لحظات كانت أطول علي من أعوام، ثم أشعل سراجا صغيرا كان هناك، فتلفت حولي فرأيت الغرفة خالية، ليس فيها شيء مما كنت أتوقع رؤيته من العجائب، وما فيها إلا بساط وكتاب موضوع على رف، وسيف معلق بالجدار، فأجلسني على هذا البساط، ولبث صامتا ينظر إلي نظرات غريبة اجتمعت علي، هي، ورهبة المكان، وسكون الليل، فشعرت كأني انفصلت عن الدنيا التي تركتها وراء هذا الباب، وانتقلت إلى دنيا أخرى، لا أستطيع وصف ما أحسست به منها.. ثم أخذ أبي يدي بيديه بحنو وعطف، وقال لي بصوت خافت:

يا بني، إنك الآن في العاشرة من عمرك، وقد صرت

رجلا، وإني سأطلعك على السر الذي طالما كتمته عنك، فهل تستطيع أن تحتفظ به في صدرك، وتحبسه عن أمك وأهلك وأصحابك، والناس أجمعين؟

إن إشارة منك واحدة إلى هذا السر تعرض جسم أبيك إلى عذاب الجلادين من رجال «ديوان التفتيش».

فلما سمعت اسم ديوان التفتيش ارتجفت من مفرق رأسي إلى أخمص قدمي، وقد كنت صغيرا حقا، ولكني أعرف ما هو ديوان التفتيش، وأرى ضحاياه كل يوم، وأنا غاد إلى المدرسة، ورائح منها ـ فمن رجال يصلبون أو يحرقون، ومن نساء يعلقن من شعورهن حتى يمتن، أو تبقر بطونهن، فسكت ولم أجب.

فقال لي أبي: مالك لا تجيب! أتستطيع أن تكتم ما سأقوله لك؟

قلت: نعم

قال: تكتمه حتى عن أمك وأقرب الناس إليك؟

قلت: نعم

قال: اقترب مني. أرهف سمعك جيدا، فإني لا أقدر أن

أرفع صوتي. أخشى أن تكون للحيطان آذان، فتشي بي إلى ديوان التفتيش، فيحرقني حيا.

فاقتربت منه وقلت له:

إني مصغ يا أبت

فأشار إلى الكتاب الذي كان على الرف، وقال:

أتعرف هذا الكتاب يا بني؟

قلت: لا

هذا كتاب الله

قلت: الكتاب المقدس الذي جاء به يسوع ابن الله

فاضطرب وقال:

كلا، هذا هو القرآن الذي أنزله الله، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، على أفضل مخلوقاته، وسيد أنبيائه، سيدنا محمد بن عبد الله النبي العربي صلى الله عليه وسلم.

ففتحت عيني من الدهشة، ولم أكد أفهم شيئا.

قال: هذا كتاب الإسلام، الإسلام الذي بعث الله به محمدا إلى الناس كافة.. فظهر هناك.. وراء البحار

والبوادي.. في الصحراء البعيدة القاحلة.. في مكة في قوم بداة، متخلفين، مشركين، جاهلين، فهداهم به إلى التوحيد، وأعطاهم به الاتحاد، والقوة، والعلم والحضارة، فخرجوا يفتحون به المشرق والمغرب، حتى وصلوا إلى هذه الجزيرة، إلى إسبانيا، فعدلوا بين الناس، وأحسنوا إليهم، وأمنوهم على أرواحهم وأموالهم، ولبثوا فيها ثمانمائة سنة.. ثمانمائة سنة، جعلوها فيها أرقى وأجمل بلاد الدنيا.

فلم أملك لساني من الدهشة والعجب والخوف، وصحت به:

ماذا؟ نحن؟.. العرب المسلمين!

قال: نعم يا بني. هذا هو السر الذي سأفضي به إليك.

نعم نحن. نحن أصحاب هذه البلاد، نحن بنينا هذه القصور، التي كانت لنا فصارت لعدونا، نحن رفعنا هذه المآذن التي كان يعلو فيها صوت المؤذن، فصار يقرع فيها الناقوس، نحن أنشأنا هذه المساجد، التي كان يقوم فيها المسلمون صفا بين يدي الله، وأمامهم الأئمة، يتلون في المحاريب كلام الله، فصارت كنائس يقوم فيها القسوس والرهبان، يرتلون فيها الإنجيل.

نعم يا بني نحن العرب المسلمين.

نعم يا بني.. نحن العرب المسلمين، لنا في كل بقعة من بقاع إسبانيا أثر، وتحت كل شبر منها رفات جد من أجدادنا، أو شهيد من شهدائنا. نعم.. نحن بنينا هذه المدن، نحن أنشأنا هذه الجسور، نحن مهدنا هذه الطرق، نحن شققنا هذه الترع، نحن زرعنا هذه الأشجار.

ولكن منذ أربعين سنة.. أسامع أنت؟ منذ أربعين سنة خدع الملك البائس أبو عبد الله الصغير، آخر ملوكنا في هذه الديار، بوعود الإسبان وعهودهم، فسلمهم مفاتيح غرناطة، وأباحهم حمى أمته، ومدافن أجداده، وأخذ طريقه إلى بر المغرب، ليموت هناك وحيدا فريدا، شريدا طريدا وكانوا قد تعهدوا لنا بالحرية والعدل والاستقلال. فلما ملكوا خانوا عهودهم كلها، فأنشأوا ديوان التفتيش، فأدخلنا في النصرانية قسرا، وأجبرنا على ترك لغتنا إجبارا، وأخذ منا أولادنا، لينشئوهم على النصرانية، فذلك سر ما ترى من استخفائنا بالعبادة، وحزننا على ما نرى من امتهان ديننا، وتكفير أولادنا.

أربعون سنة يا بني، ونحن صابرون على هذا العذاب، الذي لا تحمله جلاميد الصخر، ننتظر فرج الله، لا نيأس لأن اليأس محرم في ديننا، دين القوة والصبر والجهاد.

هذا هو السر يا بني فاكتمه، واعلم أن حياة أبيك معلقة بشفتيك، ولست والله أخشى الموت أو أكره لقاء الله، ولكني أحب أن أبقى حيا، حتى أعلمك لغتك ودينك، وأنقذك من ظلام الكفر إلى نور الإيمان، فقم الآن إلى فراشك يا بني.

صرت من بعد كلما رأيت شرف الحمراء أو مآذن غرناطة، تعتريني هزة عنيفة، وأحس بالشوق والحزن، والبغض والحب، يغمر فؤادي، وكثيرا ما ذهلت عن نفسي ساعات طويلة فإذا تنبهت أطوف بالحمراء وأخاطبها وأعاتبها، وأقول لها:

أيتها الحمراء.. أيتها الحبيبة الهاجرة، أنسيت بناتك، وأصحابك الذين غذوك بأرواحهم ومهجهم، وسقوك دماءهم ودموعهم، فتجاهلت عهدهم، وأنكرت ودهم؟ أنسيت الملوك الصيد، الذين كانوا يجولون في أبهائك، ويتكئون على أساطينك، ويفيضون عليك، ما شئت من المجد والجلال، والأبهة والجمال، أولئك الأعزة الكرام، الذين إن قالوا أصغت

الدنيا، وإن أمروا لبي الأمر. أألفت النواقيس بعد الأذان؟ أرضيت بعد الأئمة بالرهبان؟

ثم أخاف أن يسمعني بعض جواسيس الديوان، فأسرع الكرة إلى الدار لأحفظ درس العربية، الذي كان يلقيه علي أبي، وكأني أراه الآن يأمرني أن أكتب له الحرف الأعجمي، فيكتب لي حذاءه الحرف العربي، ويقول لي: هذه حروفنا. ويعلمني النطق بها ورسمها، ثم يلقي علي درس الدين، ويعلمني الوضوء والصلاة لأقوم وراءه نصلي خفية في هذه الغرفة الرهيبة.

وكان الخوف من أن أزل فأفشي السر، لا يفارقه أبدا، وكان يمتحنني فيدس أمي إلي فتسألني: ماذا يعلمك أبوك؟

فتقول: إن عندك نبأ مما يعلمك، فلا تكتمه عني.

فأقول: إنه لا يعلمني شيئا.

حتى أتقنت العربية، وفهمت القرآن، وعرفت قواعد الدين، فعرفني بأخ له في الله، نجتمع نحن الثلاثة على عبادتنا وقرآننا.

واشتدت بعد ذلك قسوة ديوان التفتيش، وزاد في تنكيله بالبقية الباقية من العرب، فلم يكن يمضي يوم لا نرى فيه

عشرين أو ثلاثين مصلوبا، أو محرقا بالنار حيا، ولا يمضي يوم لا نسمع فيه بالمئات، يعذبون أشد العذاب وأفظعه، فتقلع أظافرهم، وهم يرون ذلك بأعينهم، ويسقون الماء حتى تنقطع أنفاسهم، وتكوى أرجلهم وجنوبهم بالنار، وتقطع أصابعهم وتشوى وتوضع في أفواههم، ويجلدون حتى يتناثر لحمهم.

واستمر ذلك مدة طويلة، فقال لي أبي ذات يوم: إني أحس يا بني كأن أجلي قد دنا وإني لأهوى الشهادة على أيدي هؤلاء، لعل الله يرزقني الجنة، فأفوز بها فوزا عظيما، ولم يبق لي مأرب في الدنيا بعد أن أخرجتك من ظلمة الكفر، وحملتك الأمانة الكبرى، التي كدت أهوي تحت أثقالها، فإذا أصابني أمر فأطع عمك هذا ولا تخالفه في شيء.

ومرت على ذلك أيام، وكانت ليلة سوداء من ليالي السرار، وإذا بعمي هذا يدعوني ويأمرني أن أذهب معه، فقد يسر الله لنا سبيل الفرار إلى عدوة المغرب بلد المسلمين فأقول له: أبي وأمي؟

فيعنف علي ويشدني من يدي ويقول لي: ألم يأمرك أبوك بطاعتي؟

فأمضي معه صاغرا كارها، حتى إذا ابتعدنا عن المدينة وشملنا الظلام، قال لي:

اصبر يا بني.. فقد كتب الله لوالديك المؤمنين السعادة على يد ديوان التفتيش.

ويخلص الغلام إلى بر المغرب، ويكون منه العالم المصنف «سيدي محمد بن عبد الرفيع الأندلسي» وينفع الله به وبتصانيفه.

ذكر هذه القصة الواقعة الشيخ «علي الطنطاوي» رحمه الله، في كتابه «قصص من التاريخ».

«احرص على الموت توهب لك الحياة».

أبو بكر الصديق

نصرت بالرعب مسيرة شهر

بعد معركة «عين التمر» التي انتصر فيها المسلمون بقيادة «خالد بن الوليد» على نصارى العرب المتحالفين مع الفرس، دخل المسلمون الحصن ووجدوا في الكنيسة التي في الحصن أربعين غلاما عليهم باب مغلق، فكسره خالد وسألهم عن حالهم فأجابوه بأنهم رهائن لدى أهل عين التمر، فقسمهم خالد في أهل البلاد فمنهم من أخذ غلامه ورباه ومنهم من باعه إلى أهل مدينته، من هؤلاء الغلمان الذين وجدهم خالد في كنيسة عين التمر كان «سيرين»، الذي اشتراه أنس بن مالك الأنصاري وأعتقه، وهو والد الفقيه المعروف «محمد بن سيرين»، ومنهم «حمران بن أبان الفارسي» الفقيه مولى أمير المؤمنين عثمان، ومنهم الغلام «يسار» أخذه «قيس بن مخرمة بن عبد المطلب» فأكرمه، وهو جد «محمد بن إسحاق» شيخ مؤرخي السيرة النبوية ومنهم الغلام «نصير» وهو والد القائد

الشهير فاتح الأندلس «موسى بن نصير».

في رمضان من سنة 91للهجرة، وبعد وصول الأمر الصادر من الخليفة الوليد بن عبد الملك بدأ موسى بن نصير يحضر لغزو الأندلس، فأرسل بطلا من أبطال البربر المسلمين اسمه «طريف بن مالك» ومعه مائة فارس وأربعمائة راجل في مهمة سرية استطلاعية، هدفها الحصول على المعلومات عن طبيعة الأرض والسكان وأساليب قتالهم ليتم التمهيد لفتح الأندلس بشكل صحيح ومن دون أية مفاجآت، فانطلق طريف فجاز البحر في أربعة مراكب مبحرا من مدينة طنجة حتى نزل على أرض الأندلس في منطقة عرفت بعد ذلك بجزيرة «طريف»، وما زال هذا الاسم حتى وقتنا الحاضر، وكانت أقدام هذه السرية أول أقدام مسلمة تطأ أرض الأندلس، وقد استطاعت هذه السرية أن تحقق انتصارا سريعا، ثم عادت سالمة دون أن تخسر رجلا واحدا مما أظهر سهولة الفتح للأندلس.

وبعد عام من الحملة الاستطلاعية، وتحديدا في شهر رجب من عام 92للهجرة، وبعد رسم الخطة ودراستها تم تجهيز جيوش الفتح الإسلامي للأندلس بعدما تبين ضعفها وتشت

أهلها وسار جيش كبير من العرب والبربر يقدر بسبعة آلاف مقاتل يقودهم «طارق بن زياد» من ميناء سبتة وعبر المضيق الذي عرف فيما بعد باسم قائد هذا الجيش مضيق جبل طارق، وذلك لأن طارق بن زياد حين عبر المضيق نزل عند هذا الجبل، وقد ظل إلى الآن حتى في اللغة الإسبانية يسمى «جبل طارق» «ومضيق جبل طارق»، ومن جبل طارق انتقل طارق بن زياد إلى الجزيرة الخضراء، وهناك وقعت مناوشات في معركة أو أكثر مع قوات القوط وانتصر فيها المسلمون، وقد أرسل زعيم تلك الحاميات وكان اسمه «تدمير» رسالة عاجلة إلى «لذريق» ملك الأندلس وكان في طليطلة عاصمة الأندلس آنذاك يقول له فيها: أدركنا يا لذريق؛ فإنه قد نزل علينا قوم لا ندري أهم من أهل الأرض أم من أهل السماء؟! قد وطئوا إلى بلادنا وقد لقيتهم فلتنهض إلي بنفسك.

وتوالت الانتصارات ففتح المسلمون مدينة قرطاجة واستولى طارق بن زياد على الحصون والقرى المجاورة لها، ولما وصلت لذريق أنباء تقدم المسلمين وانتصاراتهم استشاط غضبا، وقرر قتال المسلمين بنفسه فجمع جيشا قوامه مائة ألف

فارس وتحرك لذريق بجيشه لقتال المسلمين وجاء معه بحبال محملة على بغال ليقيد بها أيدي المسلمين وأرجلهم بعد هزيمتهم المحققة في زعمه ثم يأخذهم عبيدا، وكان طارق بن زياد في سبعة آلاف فقط من المسلمين جلهم من الرجالة، وعدد محدود جدا من الخيل، فلما أبصر أمر لذريق وجد صعوبة بالغة في المواجهة، سبعة آلاف أمام مائة ألف؛ فأرسل إلى موسى بن نصير يستنجده ويطلب منه المدد، فبعث إليه «طريف بن مالك» على رأس خمسة آلاف آخرين من الرجالة وأصبح عدد جيش المسلمين اثنا عشر ألف مقاتل ضد مائة ألف مقاتل من جيش لذريق، وأخذ طارق بن زياد يخطط للمعركة القادمة، ويبحث عن مكان مناسب لهذه المعركة الشرسة حتى وجد مكانا مناسبا للقتال في وادي اسمه «برباط» ويسمى أيضا «وادي لكة»، وكان هذا الوادي تحده من الجنوب والشرق جبال، فهذه الجبال تعد سدا منيعا للجيش المسلم فتحمي ظهورهم وميمنتهم، فلا يستطيع أحد أن يلتف من حولهم وفي غرب الوادي توجد بحيرة كبيرة، وهي بذلك تحمي ميسرة الجيش ولا يستطيع أحد أن يلتف من حولهم،

وكان هذا الوادي هو أفضل مكان للمعركة وعسكر في هذا الوادي بانتظار جيوش لذريق.

وفي شهر رمضان المبارك، الشهر الذي ارتبط بالعزة والفتوحات والانتصارات لكل ناظر للتاريخ بدءا من غزوة بدر الكبرى، التي غيرت وجه التاريخ وفتح الأندلس وعمورية وعين جالوت وغيرها، وقعت المعركة الحاسمة بين الجيشين في وادي برباط أو وادي لكة، وإن الناظر لهذه المعركة يرى أنها ليست متكافئة لا بالعدد والعدد فكيف لجيش من اثني عشر ألف مقاتل من الرجالة يحارب جيشا من مائة ألف فارس على خيولهم؟ ولكن شتان بين من خرج مسترخصا الحياة من أجل دينه مقاتلا بالإيمان وقوة العقيدة وأهدافها السامية، وفريق قلبه معلق بالحياة وأسمى أمانيه العودة إلى أهله وماله، شتان بين فريق تغلغل الايمان إلى قلوبهم يقاتلون في سبيل الله، وفريق يقاتل في سبيل الطاغوت، وكيف يهزم رجال آثروا مرضاة الله عز وجل بدعوة الناس للإسلام على متاع الدنيا، فودعوا الدعة والسكون وهجروا الفراش والسلامة وتركوا الديار والأهل والأحباب وصارت ظهور الخيل مساكنهم، فلا عجب أن تنتهي

حياتهم في آخر بقاع الأرض طالما توجت حياتهم «بالشهادة في سبيل الله»، وبدأت المعركة والتحمت الجيوش التحاما شديدا وتلاطمت السيوف وتناثرت أشلاء القتلى والشهداء وارتفعت سحب الغبار في ساحة المعركة، وتعالت الأصوات وعلت صيحات التكبير، واشتد القتال الضاري بين الفريقين وأمواج النصارى تنهمر على المسلمين كالسيل الذي لا يقف، وثبت المسلمون ثباتا رائعا مع قلة عددهم ولكن هيهات أن تقف هذه الجيوش أمام كلمة التوحيد، وأمام من باعوا دنياهم لأجل نشر الإسلام وإعلاء كلمة الحق، وعلى مدى ثمانية أيام دارت رحى حرب طاحنة والمسلمون صامدون صابرون في هذا الجو المتلاطم وقد وصف بن عذارى هذه المعركة فيقول :«فخرج إليهم طارق بجميع أصحابه رجالة، ليس فيهم راكب إلا القليل؛ فاقتتلوا قتالا شديدا حتى ظنوا أنه الفناء»، وانتهت هذه المعركة بنصر مؤزر للمسلمين وفتح قريب لهذه البلاد التي لطالما حلم المسلمون الأوائل بفتحها، وبعد أن علم الله صبر المسلمين وصدق ايمانهم، وقتل لذريق ملك الأندلس في هذه المعركة، أو فر في رواية أخرى وانقطع ذكره، وسطر المسلمون

ملحمة من ملاحم الأبطال الشجعان الذين قاتلوا أعتى الجيوش مجاهدين في سبيل الله، وغنم المسلمون غنائم كبيرة وعظيمة وأهمها الخيول فأصبح كل الجيش الإسلامي من الخيالة، وانتهت المعركة وقد استشهد فيها 3آلاف من الشهداء الذين رووا أرض الأندلس بدمائهم الغالية، وأوصلوا هذا الدين إلى الناس، وقد سميت هذه المعركة التي مهدت لفتح بلاد الأندلس بالكامل «معركة برباط» أو «معركة لكة»، وقد اعتبرت هذه المعركة من المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام.

وتحقيقا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «نصرت بالرعب مسيرة شهر»، فبعد هذه المعركة، فتحت إشبيلية وأستجة بجيش لا يتعدى تسعة آلاف رجل وبدأ طارق بن زياد بإرسال السرايا لفتح المدينة تلو الأخرى، وكان عدد الرجال في هذه السرايا لا يزيد على سبعمائة رجل، وانطلق هو بقوة الجيش الرئيسة في اتجاه الشمال؛ حتى يصل إلى طليطلة عاصمة الأندلس آنذاك، وفتحت غرناطة، ومالقة، ومرسية، وفتحت قرطبة على قوتها وعظمتها بسرية من تلك التي لا تعدى سبعمائة رجل فقط، ولكن الله بث في قلوبهم الرعب

من هذا الجيش المسلم، ثم جاء المدد من المغرب بقيادة موسى بن نصير بجيش قوامة ثمانية عشر ألف مقاتل واستكملوا فتح بلاد الأندلس، فتم فتح كل البلاد إلى أن وصلوا لجنوب فرنسا وفتحوها، وكل هذه الفتوحات بثلاث سنوات فقط، وتواصلت الفتوحات بعد ذلك بسنوات قليلة إلى أن وصل الفاتحون لمدينة «بواتيه»، والتي تبعد عن باريس 200كيلومتر فقط، كل هذه الفتوحات حصلت في عهد الدولة الأموية التي أصبحت أكبر دولة اسلامية في تاريخ البشرية، بلا منازع وحدودها من أطراف الصين شرقا حتى جنوب فرنسا غربا، فكان بنو أمية يفتحون البلاد على أربع جهات فهذا «عقبة بن نافع» و«حسان بن النعمان» و«موسى بن نصير» فتحوا المغرب والأندلس، و«قتيبة بن مسلم» سارت فتوحه في الشرق في بلاد «ما وراء النهر» و«الصين»، وفي الجنوب الشرقي حتى «السند» بقيادة «المهلب بن أبي صفرة»، و«محمد بن القاسم» وفي الشمال وبلاد «القوقاز» كان هناك «مسلمة بن عبدالملك» و«مروان بن محمد»، لقد كانت فتوحا ترتفع لها هامات المسلمين عزا وكبرياء حركها ايمان بالله وتمسك بشرعه وتطبيق لنهجه في

الحياة فكان عاقبتها التمكين في الأرض.

وأسست في الأندلس نواة لدولة عظيمة وقوية وكبيرة، دامت أكثر من سبعمائة سنة وأصبحت الأندلس بلد الحضارة والعلم والجهاد خضعت لها ملوك أوروبا.

يقول المؤرخ الفرنسي دريبار: «نحن الأوروبيون مدينون للعرب (يقصد المسلمين) بالحصول على أسباب الرفاه في حياتنا العامة، فالمسلمون علمونا كيف نحافظ على نظافة أجسادنا، فإنهم كانوا عكس الأوروبين الذين لا يغيرون ثيابهم إلا بعد أن تسخ وتفوح منها روائح كريهة، فقد بدأنا نقلدهم في خلع ثيابنا وغسلها. وكان المسلمون يلبسون الملابس النظيفة الزاهية، حتى أن بعضهم كان يزينها بالأحجار الكريمة كالزمرد والياقوت والمرجان»، ويقول «ريتشارد كوك» في كتابه «مدينة السلام»: «إن أوروبا لتدين بالكثير لإسبانيا العربية فقد كانت قرطبة سراجا وهاجا للعلم والمدنية في فترة كانت أوروبا لا تزال ترزح تحت وطأة القذارة والبدائية، وقد هيأ الحكم الإسلامي في اسبانيا مكانة جعلها الدولة الوحيدة التي أفلت من عصور الظلام».

وفي النهاية لا أجد قولا أختم به أفضل مما قاله «جورج سارتون» في كتابه حضارة العرب إذ يقول: «لقد سبق للعرب أن قادوا العالم في مرحلتين طويلتين ظلت الأولى حوالي ألفي عام قبل اليونان، وعاشت الثانية طوال أربعة قرون خلال العصور الوسطى، وليس ثمة ما يمنع هذه الشعوب من أن تقود العالم مرة أخرى في المستقبل القريب أو البعيد»

خلد العالم اسم هذا القائد المسلم العظيم الذي مهد لمن بعده الطريق للأندلس، والتي أصبحت فيما بعد جوهرة العالم، فرحم الله موسى بن نصير، وطارق بن زياد وأسكنهم فسيح جناته، وبعد سنوات من فتح الأندلس ساءت الأحوال وبلغ الضعف الشديد والتفكك فيها أقصى حالاتها وجعل من سقوطها أمرا حتميا لدرجة جعلت الأمراء يزهدون في الحكم، فتم تسليم الحكم لبطل رغما عنه فغير مجرى التاريخ في أوروبا، وكان عمره في هذا الوقت لم يتجاوز الواحد والعشرين فجعل مملكة الأندلس أعظم مملكة عرفتها أوروبا، والذي كان يقول له ملك إنجلترا «أنا خادمك المطيع» !

لا تحسبن المجد تمرا أنت آكله

لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

حوط بن رئاب الأسدي

انتكاسة ونهوض

يقول الدكتور راغب السرجاني في كتابه «قصة الأندلس»: إن من سنن الله عز وجل أن الأمم لا تسقط فجأة بل يأتي السقوط متدرجا وعلى فترات طويلة، ومن أهم هذه العوامل انفتاح الدنيا وحب الغنائم، القبلية والقومية، ظلم الولاة وترك الجهاد.

وبعدما ساءت أحوال الأندلس وبلغت من التفكك والتشرذم أقصى حالاتها جعل من سقوطها أمرا حتميا في عهد الضعف بعد اشتعال نار التمرد والانفصال في معظم أراضي دولة الأمويين في الأندلس، ولم يبق للأموين سوى مدينة قرطبة ليحكموها بعد انطلاق الثورات والتمردات في كل مكان حتى أن «ابن عذارى» وصف الأندلس في تلك المرحلة بأنها «جمرة تحتدم ونار تضطرم شقاقا ونفاقا»، وما إن توفي الأمير «عبد الله بن محمد» أمير قرطبة عام 300للهجرة، حتى

أخذت البيعة لحفيده «عبدالرحمن بن محمد» في قصر قرطبة فبايعه أعمامه وأعمام أبيه في مشهد غير مألوف، فقد كانت البيعة تنتقل للأبناء أو إلى الإخوة، ولكن البيعة أخذت للحفيد رغم وجود عدد من أبناء الأمير وإخوته على قيد الحياة، ولكن هذا الانتقال للسلطة مباشرة للحفيد ما هو إلا زهدا في الحكم وتخوفا من هذا الحمل الثقيل، وهذه التركة المثقلة بالهموم والمغامرة غير مأمونة العواقب، وصعوبة تحمل المسؤولية في ظل حالة التمزق التي سادت الأندلس بعد اشتعال الثورات فيها، وأنه لا أمل في الاصلاح، فاستلم «عبد الرحمن الناصر» الحكم وهو في سن الثالثة والعشرين فإذا به يجعل الضعف قوة والتمزق توحدا، وقاوم المستحيل وسهل الصعب ووحد بلاد الأندلس بالكامل في فترة لا تزيد عن 16 سنة، فسبحان الله أحيانا يبخس الشباب نفسه وأحيانا تبخس الدولة شبابها، ولكن عندما تهتم الأمة بتربية أبنائها فإنها حتما تخرج أبطالا مثل «محمد الفاتح» فاتح القسطنطينية وهو لم يتجاوز الثانية والعشرين، و«أسامة بن زيد» قائد جيش المسلمين وهو لم يتجاوز السابعة عشر، و«محمد القاسم» الذي

فتح بلاد السند وهو لم يتجاوز السابعة عشر أيضا، و«الزبير بن العوام» وهو أول من سل سيفا في الإسلام ولم يتجاوز الخامسة عشر، والكثير من أبطال المسلمين الشباب الذي لا يتسع المقام لذكرهم جميعا، فيا أمة الإسلام لن تنهضي إلا بشبابك ويا شباب الإسلام انهضوا لمجدكم.

عبد الرحمن الناصر من هو؟

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الملقب بعبد الرحمن الناصر، قتل أبوه وهو ولم يبلغ شهرا من عمره فنشأ يتيما رباه جده الأمير «عبد الله بن محمد» على سعة العلم وقوة القيادة والجهاد وحسن الإدارة، فدرس القرآن والسنة وهو طفل وبرع في النحو والشعر والتاريخ، وتعلم فنون الحرب والفروسية، وهكذا تعلقت آمال الدولة عليه بعد ضياع الأندلس وتمزقها، فتولى عبد الرحمن الناصر الحكم وما كان يحكم إلا قرطبة وما حولها من القرى فأخذ على عاتقه مهمة تعتبر من أثقل المهام وكله ثقة بالله تعالى وأنه قادر على كل شيء، وكله ثقة بنفسه بأنه قادر على تبديل الضعف إلى قوة والفرقة إلى وحدة، وبهذه التربية وبهذه الثقة الشديدة بالله دخل عبد الرحمن الناصر ليغير من التاريخ.

فبدأ عبد الرحمن الناصر بتثبيت الحكم من الداخل، فعزل البطانة الفاسدة من مناصب الدولة وغير المؤهلين لهذه المناصب، وولى أهل الكفاءة وحسن التدبير وطبق الشريعة وقرب العلماء ورفع منزلتهم وقدرهم، وهكذا بدأ العمل في قرطبة بإخلاص وهدوء شديد، وبعد الانتهاء من تنظيف قرطبة من الداخل اتجهت أنظاره للثورات خارج قرطبة حينها كانت الأندلس مقسمة إلى سبعة مناطق، وكانت كل منطقة فيها ثورة ضد عبد الرحمن الناصر، وهذه المناطق تصارع مع بعضها البعض بالإضافة إلى هجمات النصارى على شمال الأندلس، فجهز جيشا لمقاتلة المرتدين بعد إعداده عسكريا وروحيا إعدادا صحيحا وحفز الناس على الجهاد في سبيل الله فخرج عبد الرحمن الناصر بعد شهرين من توليه الحكم في حملة يقودها هو بنفسه وتوجه للقضاء على ثورة «عمر بن حفصون» الذي ارتد عن الإسلام، وغير اسمه إلى «صمويل بن حفصون» في جنوب الأندلس والتي كانت من أقوى الثورات في الأندلس ودامت هذه الحملة ثلاثة أشهر استطاع فيها الناصر استرجاع مدينة استجة وجيان والحصون التي

حولها في نفس العام الذي تولى فيه الحكم، ولكنه لم يستطع القضاء على هذه الثورة التي كانت تأتيها الإمدادات من كل الجهات، فقرر الناصر قطع هذه الامدادات فاتجه إلى إشبيلية واستطاع أن يضمها إليه في أقل من عام من توليه للحكم، واستولى على مضيق جبل طارق وبذلك استطاع عبد الرحمن الناصر قطع كل طرق الامدادات والمساعدات عن صمويل بن حفصون التي كانت تمده وتقويه.

ولم يجد صمويل بن حفصون بدا من طلب الصلح من عبد الرحمن الناصر على أن يعطيه مائة واثنين وستين حصنا من حصونه، فوافق عبد الرحمن الناصر على هذا الصلح، وبدأ يتفرغ لانقسامات والثورات في الأندلس بعدما أمن جانب صمويل بن حفصون.

وبعد أن أصبحت قوة عبد الرحمن الناصر تزداد وشوكته تقوى وسلطته تكبر، وبعد تفكير شديد بأي الثورات التي يجب عليه قمعها، قرر في عام 302للهجرة ترك كل هذه الثورات والاتجاه شمالا لمحاربة مملكة ليون النصرانية التي اعتدت على غرب الأندلس، وكان في غرب الأندلس ثورة ضد عبد

الرحمن الناصر وكأنه أراد أن يرسل رسالة للمسلمين مفادها أن الأعداء الحقيقين ليسوا المسلمين، إنما هم النصارى في الشمال فأرسل الحملات والجيوش وعلى مدى سنتين من محاربة النصارى، وبعدما حقق الانتصارات وأوقع بهم هزيمة مريرة وغنم غنائم عظيمة ثم عاد إلى قرطبة وتفاجأ أهل غرب الأندلس من موقفه ولماذا لم يستولي على الحكم؟، ولكن عبد الرحمن الناصر لم يكن هدفه المنصب أو الإمارة بل هدفه الوحيد الدفاع عن المسلمين أينما وجدوا وتوحيدهم، ونشر دين الله فتحركت عاطفة الشعوب نحو من يدافع عن قضايا الأمة، ويحارب الأعداء الحقيقين ففتحت سرقسطة أبوابها وانضمت تحت حكم الناصر بلا قتال.

وفي عام 306للهجرة توفي صمويل بن حفصون مرتدا وعلى نصرانيته والذي قاد أخطر الثورات في الأندلس، وبسرعة اتجه عبدالرحمن الناصر لمعاقل بن حفصون واستولى عليها وطهرها، لم يهدأ عبد الرحمن الناصر وبدأ بإرسال الحملات على الصليبين، ويقمع الثورات هنا وهناك ويضم المدن الثائرة لأملاكه وفي عام 308للهجرة قاد رحمه الله

حملة ضد ممالك الشمال النصرانية، وحقق انتصارات ضخمة وغنائم عظيمة في معركة تسمى «غزوة موبش الكبرى»، واسترد المدن التي كانت تحت يد النصارى ويقود أيضا حملات ضد مملكة «نافار» النصرانية ويكتسحها اكتساحا ويضم مدينة «بمبلونة» عاصمة نافار، ويحرر الأراضي التي كان قد استولى عليها النصارى في عهد الضعف وهكذا وبعد 16سنة من الكفاح وحد الأندلس كلها تحت راية واحدة وهو لم يتجاوز ثمانية وثلاثين عاما بعد. وهكذا هي حياته رحمه الله لم يهدأ ولم يسكن إلى راحة بل واصل جهاده في سبيل الله حتى أيقن النصارى بالهلكة فطلبوا المعاهدة ودفع الجزية للمسلمين عن يد وهم صاغرون، لم يكن جهد عبد الرحمن كله موجها للحرب والجيوش، بل إنه كان متكاملا في إدارة شؤون بلاده بعدما أنشأ الوزارات ونصب أهل الكفاءة، فتطورت الدولة ونمت في كل الأصعدة فازدهرت مدينة قرطبة الذي بلغ عدد سكانها نصف مليون مسلم وهي ثاني أكبر مدينة في تعداد السكان في العالم بعد بغداد، والتي كان تعداد سكانها يبلغ مليونين.

فأنشأت الدور في قرطبة التي بلغ عددها ثلاثة عشر ألف

دار، والدار هي البيت الواسع الذي يضم حديقة حوله وثمانية وعشرين ضاحية، وشيدت المساجد فكانت ثلاثة آلاف مسجد، وبنيت أكثر من سبعمائة حمام عام في قرطبة، ورصفت الطرق وأضيئت الشوارع ليلا ووسع مسجد قرطبة حتى أصبح آية من آيات الفن المعماري وأنشئ «قصر الزهراء» الذي لم يبن مثله في ذلك الزمان وأصبح من المعجزات في عصره لاستقبال الوفود التي تأتي من كل بلاد الدنيا طلبا لود الناصر، فأطلق على مدينة قرطبة «جوهرة العالم»، وليس هذا كله بل اهتم عبد الرحمن الناصر بالجانب الاقتصادي فأنشأ الأسواق المتخصصة، واهتم بالزراعة فتنوعت الأشجار والثمار وقام أيضا باستخراج الذهب والفضة وصناعة السفن والجلود، فعاشت البلاد في رخاء منقطع النظير وكثرت الأموال حتى بلغت ميزانية الأندلس ستة ملايين دينار ذهبي فكان يقسمها ثلاثة أقسام ثلث للجيش، وثلث لتصريف أمور الدولة، وثلث لادخار لنوائب الزمن.

وفي الجانب العلمي اهتم عبد الرحمن الناصر بالعلم والتعليم، فأصبحت قرطبة أكبر مركز علمي في أوروبا، والتي كانت تدرس جميع العلوم ويشرف عليها أعظم الأساتذة

وطلبتها يفدون إليها من مشارق الأرض ومغاربها، مسلمين كانوا أم غير مسلمين، واهتم بمكتبة قرطبة ووسعها وجلب إليها الكتب حتى بلغ عدد كتبها أربعمائة ألف كتاب، وهو في زمن لم تظهر فيه الطباعة حتى أصبحت مكتبة قرطبة أشبه بالجامعة التي تضم كل التخصصات والأقسام بكل فروعها، وهي مكتبة واحدة فقط من 75مكتبة في المدينة، فبدأت تظهر وظائف جديدة مثل النساخين الذين ينسخون الكتب، والمترجمين الذي يترجمون الكتب من كل اللغات حتى أن النساء الأندلسيات كن ينسخن القرآن بالخط الكوفي في وقت كانت فيه نساء أوروبا أميات جاهلات يحرم عليهن التعلم بل حتى لمس كتاب المسيحية وهو الكتاب المقدس، وكما يقول المؤرخ «لونجي رينالد»: «بينما كان كل مسلم يعرف القراءة والكتابة، كان جميع مسيحيو أوروبا حتى نبلاؤهم وأشرافهم لا يفكرون في التعلم»، فانتهت الأمية نهائيا في الأندلس في عهد هذا البطل الذي نحتاجه في زمننا هذا كي يعيد لنا ذلك المجد الضائع والهمة الإسلامية العالية.

ذاع صيت عبد الرحمن الناصر رحمه الله، ورضخت له

ملوك أوروبا وجاءته السفارات من كل أوروبا تطلب وده فجاءت من ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وإنجلترا وجاءت أيضا من شرق أوروبا من بيزنطة وهي بعيدة جدا عن عبد الرحمن الناصر لكنها جاءت تطلب وده وتهدي إليه الهدايا وأشهرها كان جوهرة ثمينة وكبيرة كان يضعها عبد الرحمن الناصر في وسط قصره، ومن ضمن الرسائل التي وصلت إليه رحمه الله، رسالة كانت من ملك إنجلترا يرجوه فيها أن يعلم أربعة من علماء إنجلترا في مكتبة قرطبة أو في جامعة قرطبة، طلب منه ملك إنجلترا هذا الطلب ثم وقع في آخر الرسالة «خادمكم المطيع ملك إنجلترا». وهكذا أصبح عبد الرحمن بلا منازع أعظم ملوك أوروبا في القرون الوسطى، وهذا ما جعل إسبانيا سنة (1963) تحتفل بمرور ألف عام على وفاة عبد الرحمن الناصر أعظم ملوك أوروبا فلم يستطيعوا أن يخفوا اعجابهم بهذا الرجل.

حكم عبد الرحمن الناصر الأندلس طيلة نصف قرن (350300 للهجرة)، لم يعرف فيها إلا طريق المجد والعزة، وطريق العظمة والجدية، فكان رحمه الله قريبا لربه عابدا ذاكرا سريع الرجوع إليه، فقد حدث ذات مرة قحط شديد في

الأندلس، وقام الناس لاستسقاء، ولكنهم نظروا فلم يجدوا الخليفة معهم، فذهبوا يبحثون عنه، وكان يقوم بالصلاة «المنذر بن سعيد» رحمه الله فأرسل غلاما للبحث عن عبد الرحمن الناصر، فذهب الغلام إلى القصر فوجده منفردا بنفسه حائرا، لابسا أخشن الثياب، جالسا على التراب، ودموعه قد بللت لحيته، يعترف بذنوبه ويقول: «يا رب، هذه ناصيتي بيدك، أتراك تعذب بي الرعية وأنت أحكم الحاكمين؟! يا رب، لن يفوتك شيء مني»، فتركه الغلام وذهب إلى المنذر بن سعيد وأبلغه بما رأى، فقال المنذر: يا غلام أبشر، احمل المطر معك؛ فقد أذن الله سبحانه وتعالى بالسقيا، فإذا خشع جبار الأرض يقصد من يملك الناس فقد رحم جبار السماء. توفي رحمه الله سنة 350هـ/ 961م عن اثنين وسبعين عاما، وقد وجدوا في خزانته ورقة كان قد كتبها بخط يده، عد فيها الأيام التي صفت له دون كدر فقال: «في يوم كذا من شهر كذا في سنة كذا صفا لي ذلك اليوم»، فعدوها فوجدوها أربعة عشر يوما فقط، فسلام عليك أيها القائد البطل.

«إن الكتاب يقرأ بكل مكان ويظهر ما فيه على كل لسان ويوجد مع كل زمان وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه ويذهب العقل ويبقى أثره»

الجاحظ

البارقليط

في عام 1818م ولد شيخ هندي كبير اسمه «محمد رحمت الله بن خليل»، في إحدى مناطق الهند وجاءت جحافل الإنجليز ليحتلوا الهند، وأرادوا أن يقضوا على الإسلام في الهند ليضمنوا ألا تقوم عليهم ثورات، لأن أبناء الإسلام فقط هم من لا يقبلون الذل بعكس الهندوس، فجلبوا العديد من القساوسة والمنصرين وعلى رأسهم القس «الأب فندر» الذي كان مشهورا بفصاحته وغزارة علمه، وبدأ هذا القس ومن معه في تنصير المسلمين وإلقاء الشبهات والاتهامات على الإسلام، والمسلمون عاجزون عن الرد.

فانبرى للدفاع عن الإسلام الشيخ «محمد رحمت الله» وطلب عقد مناظرة علانية على الملأ ليناظر «القس فندر»، فتجمع عشرات الآلاف من الهنود والهندوس في العاصمة الهندية «دلهي» في أكبر مناظرة عرفتها الهند، فظن هذا القس

البائس أن الفرصة أصبحت مواتية له لينصر عشرات الآلاف دفعة واحدة، ولكن حدثت المفاجأة بدأ القس المناظرة بسيل من الاتهامات للإسلام وسب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم والطعن فيه، ولما انتهى من كلامه العفن قام الشيخ «محمد رحمت الله» ليفند تلك الاتهامات الباطلة الواحدة تلو الأخرى، حتى إذا ما انتهى بدأ مرحلة الهجوم الكاسح على هذا القس ليقرأ من كتابه المقدس ما يثبت نبوة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وبطلان ألوهية عيسى، والشيخ يقرأ أسفار الكتاب المقدس سفرا سفرا لعدة ساعات بلا تلعثم في كلمة واحدة، لتتعالى صيحات التكبير من عشرات الآلاف وما إن فرغ من كلامه حتى تقدم مئات الهندوس ليعلنوا إسلامهم وليمرغ أنف القس النصراني في التراب بعد هزيمته الساحقة الماحقة، وتشتهر هذه المناظرة في جميع أنحاء العالم ثم يهرب الشيخ «محمد رحمت الله» متخفيا إلى مكة وذلك بعد أن رصدت القوات الإنجليزية مكافأة قدرها «ألف روبية» لمن يستطيع القبض عليه، وهناك استقبله المسلمون وأكرموه وطلبه الخليفة العثماني «عبدالعزيز خان» لمقابلته ليقص عليه ما

حدث في المناظرة ليفرح به الخليفة ويكرمه ويطلب منه تدوين أحداث هذه المناظرة في كتاب على نفقة الخليفة شخصيا، وبالفعل دون الشيخ «محمد رحمت الله» أحداث هذه المناظرة في كتاب وسماه «إظهار الحق» ليجده بعد حوالي قرن ونصف شاب اسمه «أحمد ديدات» وتغير حياته بعد قراءة هذا الكتاب ليصبح الداعية الإسلامي الأول الذي إذا ذكر اسمه ارتعدت فرائص النصارى في جميع أنحاء العالم.

لا تستهن بالقراءة واجعلها إحدى أساسياتك اليومية، فلا تعرف قد يغير كتاب منهم حياتك لتكون سببا في تغير خارطة الأمة بأكملها، وهذه قصة «أنسيلم ترميدا» الذي أسلم وغير اسمه «لعبد الله الترجمان» بعد رحلة علم طويلة سوف أذكرها.

في الوقت الذي كان الصليبيون يكرسون جهودهم في نشر النصرانية المحرفة في ربوع الأندلس بعد نفي المسلمين منها شرح الله صدر رجل من أكبر علمائها للإسلام، فأسلم وجهه لله، واستقام على طاعة الله وجاهد بيده ولسانه وقلمه في سبيل الله عز وجل، ذلكم هو الشيخ «أبو محمد عبد الله بن عبد الله الميورقي» وشهرته الترجمان، وكانت شهرته

بالترجمان لأنه بعد سنة من إسلامه أتقن اللغة العربية وعينه الأمير رئيسا لشئون الترجمة.
ومن ألقابه عند العوام «سيدي تحفة»، وذلك نسبة إلى كتابه الشهير: «تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب»، ذلك الكتاب الذي كان بمثابة ضربة قوية على بنيان النصرانية كتبه عالم من أكبر علماء النصرانية في عصره باعتراف أهلها وشهادتهم، وهذه قصته التي ذكرها في مقدمة كتابه.
أنسيلم ترميدا ولد في مدينة «مايوركا» في الأندلس من عام 1355للميلاد، يقول أنسيلم: «كان أبي محسوبا من حاضرة البلد ولم يكن له ولد غيري، ولما بلغت ستة سنين من عمري سلمني إلى معلم من القسيسين فقرأت عليه الإنجيل حتى حفظته، ثم أخذت في تعلم لغة الإنجيل وعلم المنطق، ثم ارتحلت من بلدي إلى مدينة «لارده» وهي مدينة العلم عند النصارى فدرست فيها واجتهدت في طلب العلم وانتقلت إلى مدينة أخرى أبحث عن طريق للعلم وأسعى في طلبه وأجتهد في جمعه، وهكذا أنتقل من مدينة لأخرى باحثا عن العلم حتى تدرجت ووصلت لقس يدعى «نقلاو مرتيل» وكان من

كبار القساوسة في الأندلس، وكانت منزلته بينهم بالعلم والدين والزهد رفيعة جدا انفرد بها في زمنه عن جميع أهل دين النصرانية، فقرأت على هذا القسيس علم أصول دين النصرانية وأحكامه ولم أزل أتقرب إليه بخدمتي والقيام بكثير من وظائفه حتى أصبحت أخص خواصه، وانتهيت في خدمتي والتقرب إليه إلى أن دفع مفاتيح مسكنه وخزائن مأكله على يدي ولم يستثن من ذلك سوى مفاتيح بيت صغير بداخل مسكنه كان يخلو فيه بنفسه، والظاهر أنه بيت خزانة أمواله التي تهدى إليه والله أعلم بحقيقته، فلازمته على ما ذكرنا من القراءة عليه والخدمة له عشر سنين، وفي يوم من الأيام وفي إحدى حلقات الدروس والقراءة اجتمع الطلاب لدراسة الإنجيل وتخلف القس «مرتيل» عن حضور الدرس لمرض أصابه فتدارس الطلبة فيما بينهم وكنت معهم إلى أن وصلنا لآية في الإنجيل لم نعرف تفسيرها وهي «إنه يأتي من بعدي نبي اسمه البارقليط»، فصعبت علينا وكثر جدالنا من غير تحصيل أي فائدة بتلك المسألة، وبعد الانتهاء من الدرس، ذهبت للمعلم مرتيل أخبره بما حدث وأنهم عجزوا عن تفسير

الآية، فسألني القس بماذا أجبت؟ فقلت: بجواب القاضي فلان في تفسيره للإنجيل فقال لي: سددت وقربت، وفلان أخطأ وكاد فلان أن يقارب، ولكن الحقيقة أن هذا الاسم الشريف لا يعلمه إلا العلماء الراسخون في العلم وأنتم لم يحصل لكم من العلم إلا القليل، فبادرت إلى قدميه أقبلها وقلت له: يا سيدي قد علمت أني ارتحلت إليك من بلاد بعيدة، ولي في خدمتك عشر سنين حصلت عنك فيها من العلوم جملة لا أحصيها فلعل من جميل إحسانكم أن تكمل علي بمعرفة هذا الاسم الشريف، فبكى القس وقال: يا ولدي إنك تعز علي وأخشى إن علمتك تلك الآية أن يقتلك عامة النصارى، فعاهدته أن لا أخبر بها أحدا، فقال لي: اعلم يا ولدي أن «البارقليط» هو اسم من أسماء نبي الإسلام «محمد»، وعليه نزل الكتاب الرابع المذكور على لسان «دانيال» وأخبر أنه سينزل هذا الكتاب عليه وأن دينه دين الحق وملته هي الملة البيضاء المذكورة في الإنجيل، فقلت له: يا سيدي وما تقول في دين هؤلاء النصارى؟ فقال القس: يا ولدي لو أن النصارى أقاموا على دين عيسى الأول لكانوا على دين الله لأن

عيسى وجميع الأنبياء دينهم دين الله، فقلت: يا سيدي وكيف الخلاص من هذا الأمر؟، فقال القس :بالدخول في دين الإسلام، فقلت: وهل ينجو الداخل فيه؟، فقال القس: نعم ينجو في الدنيا والآخرة، فقلت: وما يمنعك أن تدخل فيه؟!

فقال القس: يا ولدي إن الله تعالى لم يطلعني على حقيقة ما أخبرتك به من فضل الإسلام وشرف نبي الإسلام إلا بعد كبر سني ووهن جسمي، وأخشى إن أظهرت ميلا للإسلام أن يقتلني النصارى، ولا عذر لنا فيه بل حجة الله علينا قائمة، ولو هداني الله لذلك وأنا في سنك لتركت كل شيء ودخلت في دين الحق، فأعطاني خمسين دينارا ذهبا ونصحني بأن أهاجر لبلاد المسلمين.

فذهبت إلى جزيرة صقلية، ومكثت فيها خمسة أشهر أنتظر مركبا يتوجه إلى أرض المسلمين، فحضر مركب يسافر إلى تونس، فركبت البحر متوجها لبلاد المسلمين، فلما سمع بقدومي النصارى في تونس استقبلوني واحتفوا بي بعد أن عرفوا بأني قد درست على يدي كبير القساوسة «نقلاو مرتيل»

فأصبحت من علمائهم المشهورين، وبعدها بفترة ذهبت للسلطان «أبي العباس أحمد» لأعلن إسلامي أمامه، ولكني طلبت قبل أن أعلن عن إسلامي أن يرسل في طلب خيار النصارى، ويسألهم عني حتى يسمع قولهم بي لأنه ما يخرج أحد عن دين إلا ويكثر الطعن وأهل القول فيه، ففعل السلطان وجمعهم عنده وقال لهم: ما تقولون في هذا القسيس الجديد الذي قدم في هذا المركب؟ قالوا :يا مولانا هذا عالم كبير في ديننا، وقال مشائخهم: ما رأينا أعلى منه درجة في العلم والدين في ديننا، فقال لهم: وما تقولون فيه إذا أسلم؟ فقالوا: نعوذ بالله من ذلك، هو ما يفعل ذلك أبدا، فلما سمع السلطان ما عند النصارى بعث إلي وأوقفني بين يديه وشهدت بشهادة الحق أمام النصارى فكبوا على وجوههم، وقالوا: ما حمله على هذا إلا حب التزويج فإن القسيس عندنا لا يتزوج، فخرجوا مكروبين ومحزونين.

فأسلم عبدالله وسل قلمه في سبيل الله وألف كتاب «تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب» هذا الكتاب الذي كان ضربة قوية على النصارى فرحم الله الترجمان.

جاء رسول سعد بن أبي وقاص

ليبشر عمر بن الخطاب بالنصر في القادسية

فسجد عمر شكرا، ولما رفع رأسه سأل الرسول

متى بدأ القتال؟

فقال: قبل الضحى

قال: ومتى كان النصر؟

فقال: قبل المغرب

فبكى عمر حتى ابتلت لحيته فقالوا: يا أمير المؤمنبن نبشرك بالنصر فتبكي؟

فقال: والله إن الباطل لا يصمد أمام الحق مثل هذا!

ولعله بذنب أذنبته أنا أو أنتم.

ثم أردف قائلا:

«نحن أمة لا تنتصر بالعدة والعتاد، ولكن ننتصر بقلة ذنوبنا

وكثرة ذنوب أعدائنا

فإذا تساوينا بالذنوب كانت الغلبة للعدة والعتاد».

أربعة أيام قضت على أعظم امبراطورية

في فتح إفريقية وقف المسلمون في عشرين ألف جندي أمام عدو قوام جيشه مائة وعشرون ألفا، وألقى «عبد الله بن الزبير بن العوام» نظرة على قوات العدو فعرف مصدر قوته التي تكمن في ملك البربر وقائد الجيش، الذي يصيح بجنده ويحرضهم على الموت بطريقة عجيبة، فأدرك عبد الله أنه لابد من سقوط هذا القائد العنيد، ولكن كيف؟ نادى عبد الله بعض إخوانه وقال لهم: «احموا ظهري واهجموا معي».

وشق الصفوف المتلاحمة كالسهم نحو القائد حتى إذا بلغه هوى عليه في كرة واحدة فهوى، ثم استدار بمن معه إلى الجنود الذين كانوا يحيطون بملكهم فصرعوهم ثم صاحوا «الله أكبر»... وعندما رأى المسلمون رايتهم ترتفع حيث كان قائد البربر يقف، أدركوا أنه النصر فشدوا شدة رجل واحد وانتهى الأمر بنصر المسلمين، وكانت مكافأة الزبير من قائد جيش

المسلمين «عبد الله بن أبي سرح» بأن جعله يحمل بشرى النصر إلى خليفة المسلمين «عثمان بن عفان» في المدينة بنفسه.

هذه هي شجاعة المسلمين الذين بنوا أعظم وأكبر امبراطورية في التاريخ، وهدموا وأسقطوا أكبر وأعتى الامبراطوريات التي كانت تحكم العالم، حيث سقط الروم في اليرموك، وسقطت فارس في القادسية، والقادسية من أعظم أيام المسلمين وهي كالتالي:

في عام 14هـ جمع «يزدجرد» كسرى فارس طاقاته ضد المسلمين، فبلغ ذلك «المثنى بن حارثة الشيباني» فكتب إلى «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه يعلمه بذلك، وبعدما أدرك المسلمون خطورة الموقف على سير الدعوة الإسلامية في العراق، عقد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مجلسا حربيا وأعلن حالة النفير العام في جزيرة العرب لإنهاء الوجود العسكري الفارسي في العراق، وقرر قيادة جيش المسلمين بنفسه لمجابهة جيوش الفرس بعد عزم القيادة الفارسية على حرب المسلمين وطردهم من العراق والتصدي للدعوة

الإسلامية، وبعد مشاورات حول قيادة الجيش الإسلامي أوصى «عبد الرحمن بن عوف» رضي الله عنه بأن لا يخرج عمر بن الخطاب بنفسه إلى العراق لأنه إن كسر، فإن في ذلك كسر لجيوش المسلمين في كل مكان، فقال عمر رضي الله عنه: إذا أشيروا علي من نبعث إلى العراق؟، فقال عبد الرحمن بن عوف: قد وجدته يا أمير المؤمنين، قال عمر: من؟ قال: الأسد في براثنه، فعرفه عمر رضي الله عنه على الفور، ووافق على قيادة هذا الأسد للجيش، فأرسل إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطلبه، ويأتي هذا الصحابي تلبية لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويصبح أميرا على جيوش المسلمين، فمن هو «الأسد في براثنه»؟ إنه «سعد بن أبي وقاص» رضي الله عنه، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وخال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو رضي الله عنه خامس من أسلم على وجه الأرض برسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل هو السابع، وهو الوحيد الذي فداه الرسول بأبيه وأمه، ففي غزوة أحد كان الرسول يقول له: «ارم سعد فداك أبي وأمي»، فاتفق المسلمون على تولية سعد بن أبي

وقاص على قيادة جيوش المسلمين، وقال عمر رضي الله عنه والله لأرمين ملوك العجم بملوك العرب، فأرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الأمراء والخطباء والشعراء في كل أطراف الجزيرة العربية لكي يحثوا الناس على الجهاد، فاستجاب عرب الجزيرة لاستنفار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فأخذت قوافلهم تحط بالمدينة، فازدحمت طرق المدينة وسككها بالجند، كما أرسل إلى جند خالد بن الوليد الذين ذهبوا لمساندة جيوش المسلمين في الشام أن ارجعوا إلى العراق لمساندة جيش سعد بن أبي وقاص، فتحرك سعد بالجيش متمهلا على رأس أربعة آلاف مقاتل، وكان إذا مر بحي من أحياء العرب ندبهم إلى الجهاد، فلما وصل سعد إلى العراق وكان المثنى بن حارثة ينتظر وصول سعد بن أبي وقاص إليه وكان مع المثنى ثمانية آلاف مقاتل، ولكن جرح المثنى بن حارثة الذي أصابه في معركة الجسر انتفض، فمات قبل أن يلتقي بسعد، وكان كل واحد منهما مشتاقا لرؤية صاحبه، وكيف لا، وسعد يسمع بصولات وجولات المثنى في العراق، والمثنى يعرف ويدرك قيمة سعد رضي الله عنه وصحبته وقرابته للنبي صلى الله

عليه وسلم، ولكن المثنى رضي الله عنه لم يغفل عن أمر المسلمين حتى وهو على فراش الموت فأوصى سعدا بأن يقاتل الفرس على أدنى حجر من بلادهم وأن تكون الصحراء من خلفه حتى وإن حصلت الهزيمة في المسلمين ينسحب سعد بالجيش ولا يستطيع الفرس اللحاق بهم، فلله در هذا البطل الذي يفكر بحال المسلمين ويحمل همهم وهو على فراش الموت، فسار سعد وعسكر في القادسية.

وكان عمر رضي الله عنه يرسل المدد والأوامر والتعليمات لسعد رضي الله عنه وكأنه يدير ويتحكم بالجيش وهو في المدينة المنورة وسعد ينفذ ما يؤمر به، فقد كتب عمر إلى سعد قائلا: «امض إلى هؤلاء القوم فإني قد ألقي في روعي أنكم إذا لقيتم العدو غلبتموهم ثم لم تزالوا تردوهم إذا منحكم الله أكتافهم، حتى تفتحوا المدائن عاصمة ملكهم»، وكان رضي الله عنه يحفز المسلمين ويتفاءل بنصرهم ويحثهم على الجهاد في سبيل الله، وتابعت الإمدادات حتى صار مع سعد ستة وثلاثون ألفا، كان منهم تسعة وتسعون بدريا من شهدوا غزوة بدر وثلاثمائة وبضعة عشر ممن كان له صحبة فيما بين بيعة

الرضوان إلى ما فوق ذلك، وثلاثمائة ممن شهدوا الفتح، وسبعمائة من أبناء الصحابة، فكانت هذه ذخيرة قوية للمسلمين، ثم أمر عمر سعدا بأن يرسل وفودا إلى يزدجرد كسرى فارس يدعونه إلى الإسلام، فبعث سعد بن أبي وقاص إلى يزدجرد وفدا من عشرين رجلا، عشرة منهم هم ذوي الرأي والوجاهة وعليهم «النعمان بن المقرن» وعشرة آخرون عليهم هيبة ووقار وأجسام ضخمة، وعليهم «عاصم بن عمر التميمي»، فسار هذا الوفد حتى وصل إلى المدائن فأعد يزدجرد الأمراء والوزراء لاستقبالهم، فلما دخلوا سألهم يزدجرد: ما الذي أدخلكم بلادنا؟، فرد عليه النعمان بن المقرن رضي الله عنه قائلا: إن الله قد بعث إلينا رسولا يدلنا على الخ ير ويأمرنا بالإنصاف، وإنا ندعوكم إلى ديننا فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم فالمناجزة، فتطاول يزدجرد على الوفد الإسلامي فقال :لا أعلم أمة في الأرض كانت أشقى منكم، وأخذ يذكرهم بحياتهم قبل الإسلام وقلة عددهم وضعف شأنهم وكان يستخف بأمر العرب فتصدى له «المغيرة بن زرارة» فقال: «إن الله ورسوله أمرنا أن ندعو من يلوننا من الأمم إلى

الإسلام، فاختر إن شئت أن تسلم فتنجو نفسك، أو تعطي الجزية عن يد وأنت صاغر، أو السيف»، فاستغرب يزدجرد وقال: «أتستقبلني بمثل هذا»؟! قال: «ما استقبلت إلا من كلمني»، فغضب يزدجرد وأخذته العزة بالإثم وقال: «أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتك، ارجعوا إلى صاحبكم وقولوا له أني مرسل إليه «رستم» أكبر قادة فارس حتى يدفنه ومن معه في خندق القادسية، ثم إني مولجه بلادكم حتى يناله منكم أكثر مما نالكم من سابور»، و«سابور» هذا هو الذي دخل بلاد العرب في الجاهلية وخلع أكتافهم، ثم أمر يزدجرد بإحضار كيس من تراب فقال لرجاله: احملوه على أشرف هؤلاء، ويقصد الوفد الإسلامي، فسكت المسلمون وخرج عاصم بن عمر وقال أنا أشرف هؤلاء فقال: يزدجرد انثروه على رأسه، فنثروا التراب على رأسه ثم خرج الوفد عائدا إلى سعد بن أبي وقاص فلما وصلوا قال عاصم بن عمر لسعد: «أبشر أيها الأمير فإن الله قد آتانا مقاليد ملكهم».

فجهز يزدجرد الجيش الفارسي واستدعى رستم وأمره بأن يسير لملاقاة المسلمين في القادسية، وخرج رستم على رأس

الجيش، بعد أن جمع للمسلمين جيشا ضخما كان قوامه مائة وعشرين ألفا من الجنود الفارسين وثلاثة وثلاثين فيلا، وهذا أكبر جيش يخرج من فارس على مر العصور، وتحت إمرة رجل واحد فقط، ولكن رستم حاول أن يطاول ويتهرب من ملاقاة المسلمين وكان سبب تهرب رستم رؤيا مفزعة ومخيفة قد رآها في شأن غزو المسلمين وفتحهم لبلاد فارس «فقد رأى أن ملكا نزل من السماء، ثم أخذ سلاح فارس كله، ثم جمعه وختم عليه، وأعطاه لعمر بن الخ طاب رضي الله عنه»، فأدرك رستم من هذه الرؤيا وكان معبرا ومنجما أن الفرس منهزمون لا محالة وأن المسلمين سيملكون أرضهم وديارهم، ولكن يزدجرد أصر عليه وأمره بالمسير، وكان الجيش الفارسي معسكرا في «ساباط» بالقرب من المدائن، فسار إلى «القادسية» مسافة تقل عن مائتي كيلو متر، ولكن رستم أخذ في هذه المسافة القصيرة حوالي أربعة أشهر، لأنه كان يريد أن يطاول المسلمين لعلهم يضجرون ويعودون إلى جزيرتهم، وفي الطريق مر رستم بقرية اسمها «كوثي»، ولما نزل في هذه القرية وجد رجلا من المسلمين فأمر جيشه ومن معه بأن يأتوه بهذا الرجل، فلما أتى

هذا الرجل قال رستم: «ماذا جاء بكم»؟، فقال الرجل: «جئنا لموعود الله إيانا أن يورثنا أرضكم وأبنائكم إن لم تسلموا»، فقال رستم: «فإن متم قبل ذلك»؟، قال: «من مات منا دخل الجنة، ومن بقي منا أظفره الله عليكم وإنا على يقين»، فقال له رستم: «أو قد وضعنا في أيديكم»؟، فرد الرجل قائلا: «أعمالكم وضعتكم، فلا يغرنك ما ترى حولك فإنك لا تجادل الإنس ولا الجن إنما تجادل القدر»، فغضب رستم وقتل هذا الرجل المسلم الذي لم يحفظ لنا التاريخ اسمه، ولكن حفظ لنا أن المسلم إذا اعتز وتمسك بدينه فإنه يتمكن من الوقوف في وجه أكبر العتاة، ثم واصل رستم سيره حتى بلغ قرية اسمها برس، وفي هذه القرية أخذ جنود الفرس يسرقون الطعام وأموال الناس، ويغتصبون النساء، فلما رأى رستم ذلك خطب في جيشه وقال: «لقد صدقكم والله العربي، أعمالنا وضعتنا».

فأكمل رستم مسيره حتى وصل إلى «النجف»، وعسكر فيها مؤقتا، فقرر سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن يرسل فرقة استكشافية إلى الجيش الفارسي لمعرفة عددهم وأخبارهم واستعداداتهم، فخرجت هذه الطليعة وكان بها رجل من أشجع

وأمهر فرسان المسلمين ويعد بألف فارس، هذا الرجل هو «طليحة بن خويلد الأسدي» رحمه الله، فلما وصلت هذه الفرقة ووجدوا أن الفرس قد عسكروا في النجف، ظن من مع طليحة أن ما يريد أن يعرفه سعد أين هم، ولكن طليحة قال لهم أن الأمير يريد أن يعرف أكثر من ذلك فمضى لوحده يستكشف أحوال الفرس وعادت هذه الفرقة، فأخذ طليحة يدور ويجول في معسكر الفرس حتى بلغ خيمة لرجل من كبار فرسان الفرس يعد فيهم بألف فارس فقطع أطنابها حتى سقطت على رأس صاحبها، فأحس الفرس بذلك فهرب طليحة على فرسه والفرس يلاحقونه حتى إذا اقترب منه الأول وشرغ رمحه يريد أن يطعن به طليحة، عطف عليه طليحة وراوغه وقتله، ثم لحق به فارس آخر وشرغ رمحه مرة أخرى فعطف عليه طلحة وقتله أيضا، فلحقه فارس ثالث فعطف عليه طليحة ولم يقتله بل أسره وعاد به إلى معسكر المسلمين، فأدخله طليحة على سعد فقال الفارسي: «آمني على دمي وأصدقك القول»، فقال له سعد: «الأمان لك ونحن قوم صدق ولكن شرط ألا تكذب علينا»، ثم قال سعد «أخبرنا عن جيشك»، فأخذ الفارسي

يتحدث عن فروسية وشجاعة طليحة بن خويلد، وكيف أنه اخترق هذه الجيوش وأسقط الخ يمة فوق قائدهم، فقال سعد: «ما عن هذا سألتك، إنما أخبرني عن جيشكم ومن يقوده وخططهم وما أعددتم لهذه المعركة الحاسمة»؟ فأخبره الفارسي بكل شيء يريد أن يعرفه سعد، فلما رأى هذا الرجل الفارسي تعامل سعد مع الجيش وتعامل المسلمين مع بعضهم البعض، قرر مباشرة أن يسلم وانضم إلى جيش المسلمين، وهكذا كان المسلمون دعاة بأخلاقهم ودينهم، قبل أن يكونوا دعاة بأي شيء آخر.

استمر رستم بزحفه حتى وصل إلى القادسية، فأرسل إلى سعد حتى يرسل إليه رسلا حتى يحدثهم، فأرسل إليه في اليوم الأول «حذيفة بن محسن»، وفي اليوم التالي طلب رستم أيضا رسولا آخر من سعد، فأرسل إليه «ربعي بن عامر» رضي الله تعالى عنه، وكان رستم قد أعد العدة لاستقبال ربعي، ففرش النمارق والوسائد وما إلى ذلك، فدخل عليه ربعي بن عامر وهو لا يلقي بالا لزينتهم، بل أن ربعي كان يربط سيفه بخرقة، وهذا كان حال المسلمين البساطة والبعد عن التكلف،

فلما قابل رستم ركز رمحه وجلس، فقالوا له: «لماذا لا تجلس على هذه الزينة»؟ فقال: «إننا لا نستحل الجلوس عليها»، فقال له رستم: «ما الذي جاء بكم»؟ فقال له ربعي: «الله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، حتى ينجزنا الله وعده»، فقال له رستم: «وما موعود الله»؟ فقال ربعي: «الجنة لمن مات على قتال من أبى، والنصر لمن بقي»، ثم قال له رستم «إن هذا الكلام حسن وإنكم تدعون إلى الإسلام والسلام فدعنا حتى نشاور رؤسائنا وقادتنا ثم نعود إليكم»، فرد عليه ربعي قائلا: «إن مما سن لنا رسولنا صلى الله عليه وسلم وأئمتنا من بعده ألا نعطي أكثر من ثلاث إذا التقينا بالعدو، وإن لديك ثلاثة أيام من أمس»، فقال له رستم: «أو سيدهم أنت»؟ فقال ربعي: «لا ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم»، فلما انصرف ربعي من عند رستم، نظر إلى قادته وقال: «أما رأيتم مثل هذا؟ أما رأيتم أحسن من هذا الكلام»؟ فقال له حاشيته: «معاذ الله أن ترك دينك إلى هؤلاء العرب»، فقال رستم:

«ويحكم إن العرب لا تنظر إلى الثياب والمأكل، وإنما تنظر إلى السير والأحساب».

وفي اليوم الثالث طلب رستم رسولا ثالثا لعله يتجنب الوقوع في هذا الصدام الدامي لأنه كان موقنا بالهزيمة إذا التقى بالمسلمين، فأرسل إليه سعد أحد دهاة العرب الأربعة وهو «المغيرة بن شعبة»، ودهاة العرب الأربعة كما أخرج بن عساكر عن الشعبي قال:

«دهاة العرب أربعة: معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزياد، فأما معاوية فللحلم والأناة، وأما عمرو فللمعضلات، وأما المغيرة فللمبادهات، وأما زياد فللكبيرة والصغيرة»، فذهب المغيرة حتى دخل على رستم، وأخذ رستم يفاوض ويعرض عليه عرضا فقال للمغيرة: «إنا قد أمرنا لكل رجل منكم بألف دينار وكسوة وأمرنا لأميركم بمثلها»، وكأن المسلمين أتوا يريدون أمر الدنيا، فرد عليه المغيرة وقال: «أبعد أن أوهنا ملككم، وأضعفنا عزكم، ولنا مدة نجول بلادكم ونأخذ منكم الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وستصيرون لنا عبيدا رغما عن أنوفكم»، فلما سمع رستم هذا الكلام غضب

غضبا شديدا واحمرت عيناه فقال له: «والله ما كنت أظن أني أعيش حتى أسمع هذا الكلام منكم، ارجع إلى قومك، لا شيء لكم عندي، وغدا أدفنكم في القادسية»، فعاد المغيرة إلى سعد ورأيا أنه لا بد من ذلك الصدام الدامي.

وهذه المعركة من أعظم المعارك في التاريخ الإسلامي والتي دارت رحاها في أربعة أيام، يوم كيوم بدر، وكيوم خيبر، وكيوم اليرموك، وإذا كانت هناك أيام تغير من التاريخ، فيوم القادسية من هذه الأيام، هذا اليوم فرق الله به بين الحق والباطل.

في اليوم الأول.. وقف الجيشان أمام بعضهما البعض، وشاء الله في هذا اليوم أن يمرض سعد بن أبي وقاص، فقد أصيب بدمامل في ظهره، فكان لا يستطيع أن يمشي، ولا يستطيع الجلوس، فلم يكن يستطيع أن يمتطي حصانه، فاتخذ قصر «قديس» مكانا للقيادة وصعد إلى أعلى القصر، ولم يستطع الجلوس؛ فنام على صدره على قمة القصر ووضع وسادة تحته، وبدأ بإدارة المعركة من فوق القصر، فوجه تعليماته للجيش بأنه سيكبر أربع تكبيرات، في التكبيرتين الأوليتين يستعد الجيش وينظم صفوفه، وترفع السيوف من الأغماد، ويستعد الناس

للقتال، ثم يكبر سيدنا سعد التكبيرة الثالثة فتخرج كتيبة الفرسان أفضل مجاهدي المسلمين من ناحية القتال المهاري على أشد الخ يول ضراوة إلى ساحة القتال يطلبون المبارزة، ليحفزوا المسلمين وينشطوهم، فخرج من الفرس رجل يسمى «هرمز بن جادويه» وطلب المبارزة فخرج إليه «غالب بن عبد الله الليثي» رضي الله عنه صاحب النبي صلى الله عليه وسلم وتمكن من قتل هرمز بضربة واحدة، ثم خرج رجل آخر من كبار الفرس وطلب النزال، فخرج إليه «عاصم بن عمر التميمي» رضي الله عنه، فقتله أيضا بضربة واحدة، وخطب عاصم بن عمر في الناس وقال :«أيها العرب إنكم أعيان العرب، وإنكم صمدتم لأعيان العجم، وإنما تخاطرون بالجنة، وهم يخاطرون بالدنيا، فلا يكونون على دنياهم أحوط منكم على آخرتهم»، إذ الهدف من هذه المعارك هي الدعوة إلى الإسلام وطريق الحق والرغبة في ما عند الله من فضل عظيم، وليس كما يزعم بعض المستشرقون أو بعض الجهلة من المسلمين الغنائم والتوسع وما إلى ذلك.

وقام «عمرو بن معدي كرب» يتمشى بين الصفوف، وكان يحمل أقوى سيوف العرب وهو سيف «الصمصامة» ثم إن عمر

بن معدي كرب أخذ يخطب في الناس ويحثهم على القتال قائلا لهم: «قاتلوهم كما تقاتل الأسود، فأنتم اليوم أقوى من الأسود»، فتقدم إليه رجل من الفرس ورماه بسهم فوقع على درعه وسقط على الأرض، فالتفت إليه عمر بن معدي كرب وانقض عليه وسحبه وجلد به الأرض حتى نام نومة لم يستيقظ بعدها أبدا، ثم نظر إلى المسلمين وقال: «يا معشر المسلمين هكذا فافعلوا بهم».

فلما رأت الفرس مقتل فرسانها حملت حملة شديدة على المسلمين وركزت في حملتها على قبيلة «بجيلة» إذ أنهم وجهوا ستة عشر فيلا إلى هذا الجزء من جيش المسلمين، وكان سعد يراقب الأمور من أعلى قصر قديس، ولم يكبر التكبيرة الرابعة حتى الآن، ثم أرسل إلى «بني أسد» فقال :«يا بني أسد دببوا عن بجيلة «أي أعينوهم»، فصرخ «طليحة بن خويلد الأسدي» في قومه وقال :«يا قوم إن المنوه باسمه الموثوق به وإنما سميتم أسدا لتفعلوا فعله، فأغنوا عنهم أعانكم الله»، ثم أن أسدا قفزت مع بجيلة وأخذت تذب عنها حتى أصيب منهم قوم كثيرون، وكانت أسد هم حامية الناس في ذلك اليوم، ثم إن

سعدا رأى من فوق قصره ما فعلته تلك الأفيال بجيش المسلمين فأرسل إلى عاصم بن عمر التميمي وقال: أما من حيلة لهذه الأفيال؟ فقال عاصم: بلى، ثم «جمع بنو تميم» وأخذ يقطع أطناب الفيلة ويقتل سائسيها حتى تراجعت الفيلة من ساحة المعركة، ثم كبر سعد التكبيرة الرابعة، فانطلق المسلمون ناحية الجيش الفارسي، ويتقدم كذلك الجيش الفارسي وتلتحم الصفوف، واشتدت رحى الحرب دورانا، واستمر القتال في معركة حامية جدا بين الفريقين ما بين قاتل ومقتول من الناحيتين حتى بعد غروب الشمس بقليل، وفي هذا الزمن كانت الجيوش لا تقاتل ليلا، وأنهكت قوى الفريقين فبدأ الفريقان بترك أرض القتال كل منهما عائدا إلى مكانه حتى انتهى ذلك اليوم بعد أن قتل من قبيلة أسد وحدها خمسمائة رجل رحمهم الله تعالى جميعا، وقتل من الفرس ألفي قتيل وسمي ذلك اليوم يوم «أرماث».

وفي صبيحة اليوم الثاني وإذا برجل من المسلمين يصيح «جاء المدد يا معشر المسلمين جاء المدد» فاستبشر المسلمون بذلك، ولكن من أين يأتي المدد؟

فإذا «بالقعقاع» رضي الله عنه قادما من معركة اليرموك في الشام ليشهد مع المسلمين معركة القادسية، ولا شك أن وجود القعقاع مع المسلمين في المعركة له أثر كبير على معنويات المسلمين، وهو الفارس والقائد الذي زكاه الخ ليفة «أبو بكر الصديق» رضي الله عنه وقال عنه «لصوت القعقاع خير من ألف فارس»، وكان القعقاع في طليعة «هاشم بن عتبة» قائد المدد الذي أتى من الشام، وصل في ألف رجل، وقسم هؤلاء الآلاف عشرة عشرة، حتى يدخلوا في جيش المسلمين تباعا ويشعر المسلمين بكثرة هذا المدد، ثم دخلت العشرة الأولى مع بداية المعركة وانغمسوا في الصفوف ثم دخلت العشرة الأخرى والثالثة وهكذا حتى دخل الألف جميعا، ثم دخل القعقاع رضي الله عنه في العشرة الأولى ودعا للبراز، على الرغم أنه كان قد قطع في طريقه مسافة طويلة جدا من اليرموك للقادسية على خيله، وعلى الرغم من ذلك نزل مباشرة إلى أرض القتال، فخرج له رجل ومن عادة الفرسان عندما يتبارزون أن يتعارفوا فيما بينهم إن لم يكونوا يعرفون بعضهم البعض، فقال القعقاع: «من»؟ فقال الرجل: «أنا بهمن جادويه»، وبهمن

جادويه هذا الذي لاقى المسلمون منه عنتا، والذي انتصر عليهم في معركة «الجسر» التي قتل بها قادة المسلمين، وجرح بها المثنى جرحا مات بسببه، وها هو الآن وجها لوجه مع القعقاع بن عمر، فثارت الدماء في جسده حتى صاح صيحة قال فيها «يا لثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب الجسر»!، ولاشك أن هذه الصيحة خلعت قلب بهمن قبل أن تخلع رأسه عن جسده، فقتل بهمن وصاح القعقاع في المسلمين وقال «يا معاشر المسلمين احصدوهم بالسيوف فإنما يحصدون بها»، ثم تقدم القعقاع يطلب المبارزة 30مرة في هذا اليوم؛ فقتل وحده في الكر والفر ثلاثين فارسيا، وكل ذلك ولم يلتق الجيشان، واستمرت المبارزة حتى بعد صلاة الظهر في اليوم الثاني، ثم خرج من الجيش الفارسي رجل يطلب المبارزة فخرج له «علباء بن جحش العجلي» فأصاب كل منهما الآخر في مقتل؛ فضرب الفارسي في صدره ومات، وجرح علباء في بطنه حتى خرجت أمعاؤه، فطلب من أحد المسلمين بجواره أن يساعده في إدخال أمعائه في بطنه، ثم قام فتوجه مرة أخرى إلى أرض المعركة ليستكمل القتال، وكأنه لم يصب قبل قليل ولكنه

سقط شهيدا بعد خطوات قليلة وهو يقول:

أرجو بها من ربنا ثوابا

قد كنت ممن أحسن الضرابا

والتحم الجيشان في قتال شديد ومرير، وفي زاوية من زوايا المعركة أت عجوز نخاعية وجمعت بنيها الأربعة وقالت لهم: «إنكم أسلمتم فلم تبدلوا، وهاجرتم فلم تتوبوا، وقد جئتم بأمكم عجوزا كبيرة فوضعتموها بين يدي أهل فارس، انطلقوا فاشهدوا أول القتال وآخره»، فلما غاب بنوها الأربعة في صفوف العدو رفعت يدها وقالت «اللهم ادفع عن بني» فلما انتهى ذلك اليوم عاد بنوها الأربعة ولم يصب أي أحد منهم بجرح واحد في ذلك اليوم.

وهناك امرأة أخرى جمعت أربعة من بنيها، وهي «الخنساء تماضر بنت عمر»، ووعظتهم وحفزتهم ونصحتهم حتى انطلقوا يقاتلون قتالا رهيبا في صفوف الفرس حتى أن أحدهم كان يقول:

لست لخنساء ولا للأخرم

إن لم أرد في الجيش جيش الأعجمي

إما لفوز عاجل ومغنم

أو لوفاة في سبيل الأكرم

والذي حصل في ذلك اليوم أن كل أبناء الخ نساء الأربعة استشهدوا، فرفعت الخ نساء يدها وقالت
:«الحمد لله الذي شرفني بمقتلهم، وإني أسأل الله أن يجمعني بهم في مستقر رحمته».
انظر كيف غير الإسلام من النفوس بعد جزعها على موت أخيها، تلك هي الخ نساء التي ما زلنا نسمع مراثيها في أخيها «صخر»، وصخر هذا كان يرى أخته الخ نساء قطعة من القلب، فأعطاها نصف إرثه حينما توفي والدهما وكان من عادة العرب أن لا ترث النساء، وكان «عبد العزى» زوج الخ نساء في الجاهلية مقامرا، فقامر بمالها حتى خسره كله، فذهبت الخ نساء إلى أخيها صخر تطلب معونته، فجمع ماله كله وأعطاها نصفه مرة أخرى، ثم ما لبث أن قامر زوجها فيه وخسره، فذهبت الخ نساء إلى أخيها مرة أخرى، فجمع ماله كله وأعطاها نصفه مرة ثالثة، ولأنه لم يبخل عليها بماله، فلم تبخل عليه بالشعر فخلدته، وما زلنا كلما سمعنا اسم الخ نساء دق اسم صخر في آذاننا كالناقوس، لأنه كان أخا يستحق الرثاء.
وكان هناك أيضا في قصر قديس «أبو محجن الثقفي»

ذلك الفارس الصنديد الذي حبسه سعد بن أبي وقاص لأنه كان يشرب الخ مر، فغضب عليه سعد وحرمه من دخول القتال وأمر أن يقيد بالسلاسل، فلما ابتدأ القتال وسمع أبو محجن صهيل الخ يول وصيحات الأبطال لم يطق أن يصبر على القيد واشتاق للشهادة، بل اشتاق إلى خدمة هذا الدين وبذل روحه لله وإن كان عاصيا وإن كان مدمن خمر إلا أنه مسلم يحب الله ورسوله وأخذ يقول:

كفى المرء بؤسا أن تطحن الخ يل في القنا

وأترك مشدودا علي وثاقيا

ولله عهد لا أحيف بعهده

لئن فرجت أن لا أزور الحوانيا

فسمعت «سلمى بنت حفصة» هذه الأبيات، فسألت أبو محجن وقالت: «ما شأنك ولم حبسك سعد»؟ فقال: «إني رجل يمضي الشعر على لساني، وقد كنت دائما أشدو بالحديث عن شرب الخ مر فحبسني في ذلك، وإن لك عهد الله وميثاقه لئن أطلقت قيدي وأعرتني فرس سعد «البلقاء» أن أشهد

القتال ثم إن سلمني الله أن أعود وأضع رجلي في قيدها»، ثم استخارت تلك المرأة الله سبحانه وتعالى وعادت إليه وقالت: «إني قد رضيت بعهدك»، ففرح فرحا شديدا وخرج مباشرة وأخذ فرس سعد البلقاء ثم حمل على ميمنة الفرس حملة شديدة، حتى أنه كان يأخذ السيف والرمح ويلعب بين الصفين ثم يقصف الناس قصفا كما يقول المؤرخون، ثم عاد واتجه إلى ميسرة الفرس وهو يلعب بسيفه ورمحه بين الصفين، وحمل على الفرس وهو يقصف فيهم قصفا، حتى أن الناس كانت تستغرب من هذا الفارس الذي يقصف الأعداء، وكان أبو محجن ملثما حتى لا يعرفه أحد، وأخذ يقاتل قتالا شديدا حتى المساء، وسعد بن أبي وقاص ينظر إليه من القصر مستغربا، ويتساءل من هذا الرجل ويقول: «والله لولا أن أبا محجن في القيد، لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء، الضرب ضرب أبي محجن والعدو عدو البلقاء، وأبو محجن في القيد»، وعندما انتهى ذلك القتال عاد أبو محجن ووضع رجله في قيدها مرة أخرى وهو يردد:

لقد علمت ثقيف غير فخر

بأنا نحن أكرمهم سيوفا

وأكثرهم دروعا سابغات

وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا

وأنا وفدهم في كل يوم

فإن عموا فسل بهم عريفا

وليلة قادس لم يشعروا بي

ولم أشعر بمخرجي الزحوفا

فإن أحبس فذلكم بلائي

وإن أترك أذيقهم الحتوفا

فلما علم سعد بقصته، حل قيده، واقتل الجيشان قتالا شديدا وغابت الأفيال عن المعركة لانشغال الفرس بإصلاح توابيتها التي حطمها المسلمون في اليوم الأول، واستمر القتال حتى منتصف الليل، وانتهى اليوم الثاني وقد قتل من الفرس عشرة آلاف قتيل بينما استشهد من المسلمين ألفي قتيل رحمهم الله جميعا وسمي هذا اليوم بيوم «أغواث» لأنه أغيث فيه المسلمون بالمدد الذي جاء من اليرموك.

فبعد أن انتهى القتال في منتصف الليل، وانفصلت الجيوش لم ينم القعقاع وفرقته مثل بقية الجيش لكي يستريح ويستعد لليوم التالي، لكنه قام بحيلة جديدة في هذه الليلة أيضا، فأخذ يسرب جيشه كله «الألف مقاتل» بعيدا عن الجيش في اتجاه الشام بنحو كيلومتر أو اثنين، وقال لهم: عندما يأتي اليوم التالي «وهو اليوم الثالث في القادسية» تأتون إلى أرض المعركة مائة مائة تكبرون، وكأنكم مدد جديد جاء للمسلمين؛ فيزيد ذلك من بأس المسلمين، ويضعف من عزيمة الفرس، وفعل عاصم بن عمرو التميمي أيضا نفس الفعل، فقد سرب فرقته وكانت كلها من الخ يول وهو قائدها في اتجاه آخر غير اتجاه القعقاع ناحية الجنوب؛ فأصبح الجيش الإسلامي في اليوم الثالث تأتيه فرقة من الشمال من جيش القعقاع بن عمرو التميمي يكبرون على أنهم المدد للمسلمين، وتأتي فرقة أخرى من الجنوب من جيش عاصم بن عمرو التميمي كل مائة يكبرون أيضا، وكأن المدد يأتي من الشمال والجنوب، والمسلمون لا يعرفون من أين يأتي كل هؤلاء الرجال؟ وكذلك الفرس، ووصل أيضا «هاشم بن عتبة بن أبي

وقاص» في بقية الخ مسة آلاف، والذي كان قادما من اليرموك وكان على رأس أول 700رجل، فعلم بحيلة القعقاع؛ ففعل فعله، وقسم فرقته إلى عشرة أقسام: كل قسم سبعون رجلا يكبرون: الله أكبر !، وكأن المدد لا ينتهي!

وابتدأ اليوم الثالث وكان من معالم هذا اليوم أن الأفيال دخلت في أرض المعركة مرة أخرى بعد أن أصلح الفرس توابيتها، ولاحظ سعد بن أبي وقاص ما تفعله الفيلة بالمسلمين، ولاحظ أن كل الفيلة تبع فيلين وهما الفيل الأبيض والفيل الأجرب، فأرسل إلى عاصم والقعقاع ابني عمرو التميمي «أن اكفياني الفيل الأبيض»، وأرسل إلى «حمال» و«الربيل» الأسدين «أن اكفياني الفيل الأجرب»، وقام كل رجلين في مراوغة الفيل الذي انتدبا لمواجهته، حتى تمكنوا جميعا من وضع الرماح في أعين هذين الفيلين، ثم صاحت صيحة التفت لأجلها كل الفيلة على إثر هذه الصيحة، ثم أخذت تعود أدراجها وتطأ من تواجه من الفرس حتى تركت ساحة المعركة وانطلقت حتى بلغت المدائن، وارتاح المسلمون من هذه الفيلة التي أذاقتهم الويلات في اليوم

الأول، واشتد القتال بين الفريقين وكان قتالا شديدا، ولم يكن في أيام القادسية مثل هذا اليوم الذي سمي بيوم «عمواس» في البلاء والشدة والصبر، وقد صبر الفريقان فيه على ما أصابهم صبرا شديدا.

غربت شمس ذلك اليوم، وتحاجز الفريقان ولم يكتب الله سبحانه وتعالى النصر للمسلمين في ذلك اليوم، ولكن سعدا رضي الله عنه رغم مرضه بالدمامل في جسده كان يتابع المعركة من أعلى القصر، فوجد أن هناك ثغرة عند نهر العتيق وقد يلتف الفرس فيها على المسلمين ويباغتونهم من خلفهم، فأمر رجلين من فرسان المسلمين أن يعبروا هذه الثغرة وينظروا هل يستطيع أن يعبر الفرس هذه الثغرة إلى المسلمين أم لا، فانتدب لذلك طليحة بن خويلد الأسدي الذي أصبح أشهر جاسوس في التاريخ وعمر بن معد يكرب وعبروا هذه الثغرة وكل رجل منهم معه عشرة فرسان، فلما عبروا الثغرة توجه عمر بن معد يكرب إلى مقدمة الجيش، وطليحة إلى مؤخرة الجيش وكبر طليحة ثلاث تكبيرات، فاهتزت قلوب الفرس عندما سمعوا هذه التكبيرات وخافوا وهم لم يعرفوا من أين

تأتي هذه التكبيرات، ووجدوا عمر بن معد يكرب أمامهم فقاتلوه، وتحرك المسلمون عندما سمعوا هذه التكبيرات، وكان أول من تحرك من المسلمين هو القعقاع بن عمر التميمي رضي الله عنه، ولحقته قبيلته بنو تميم، فلما رأى سعد تحرك القعقاع وتميم ولم يكن ذلك عن إذن سعد قال: «اللهم انصره واغفرها له إذ لم يستأذنني، واتميماه سائر الليلة»، ثم تحركت بنو أسد فقال: «اللهم انصرهم واغفر لهم وإن لم يكونوا قد استأذنوني، وا أسداه سائر الليلة»، وأخذ سعد كلما تحركت قبيلة يدعو لها ويستغفر الله سبحانه وتعالى لها، حتى خرجت الجيوش الإسلامية كلها، وتحرك الفرس ودارت معركة رهيبة جدا في المساء حتى أن الرماح والسيوف تقصفت وتكسرت، وكان الناس لا يتكلمون إلا همسا، وسميت لذلك تلك الليلة بليلة «الهرير»، وكان رستم وسعد كلاهما لا يدري عن حالة القوم وهم فقط يسمعون صوت السيوف والرماح وكان سعد يتضرع ويدعو الله سبحانه وتعالى أن ينصر المسلمين على الفرس، حتى سمع سعد صوتا مألوفا يقول:

نحن قتلنا معشرا وزائد

أربعة وخمسة وواحد

تحسب فوق اللبد الأساود

حتى اذا ماتوا دعوت جاهدا

الله ربي واحترزت عامد

وكان هذا الصوت صوت القعقاع رضي الله عنه يبشر سعدا بأنهم قد ردوا الفرس على أعقابهم، ولكن هذا النصر لم يكن بنصر حاسم، وأشرقت شمس اليوم الرابع والقتال ما زال مستمرا، وكان الفريقان يتقاتلون منذ أكثر من أربع وعشرين ساعة متصلة، ولم ينقطع القتال إلا نحو ساعة واحدة بعد غروب الشمس، ونال التعب من الفريقين، وكان واضحا أن الحرب تقترب من نهايتها، فكل فريق قد استنفدت طاقاته سواء الطاقات البدنية أو الاستراتيجية، فالطرفان لم يناما منذ أربع وعشرين ساعة، وكل فريق يريد للموقعة أن تنتهي.

أدرك هذه الحقيقة القعقاع بن عمرو التميمي فقال للمسلمين: «إن الدبرة بعد ساعة لمن بدأ القوم، فاصبروا ساعة واحملوا، فإن النصر مع الصبر فآثروا الصبر على الجزع».

وبدأ يحمس المسلمين، وقام خطباء المسلمين من جديد يحمسون المسلمين، وكأنهم في بداية القتال، وبدأ المسلمون في الهجوم الشديد على الجيوش الفارسية، واجتمعوا وصمدوا لقتال الفرس واشتدت وطأة القتال بين المسلمين والفرس، وقرر القعقاع اختراق قلب الجيش الفارسي والوصول إلى رستم قائد الفرس وقتله حتى ينكسر الفرس وينهزموا، فحمل القعقاع وقبيلته بنو تميم على قلب الجيوش الفارسية، والضغط عليهم، وبدأت بالفعل عملية من أصعب العمليات لأن قلب الجيش الفارسي فيه نحو عشرين ألف مقاتل، وقبيلة تميم كلها تقريبا ثلاثة آلاف مقاتل، ويبدأ قلب الفرس في الانهيار تدريجيا أمام الضغط الشديد للمسلمين، ويضغط المسلمون على الميمنة والميسرة، ويستمر المسلمون بالضغط ولكن أعداد الفرس ما زالت ضخمة، وفي هذا الوقت الصعب يصل المدد المتبقي من الشام، ودخل المدد كله في القلب مع قبيلة تميم فزاد الضغط على رستم، وبدأ الفرس ينهارون انهيارا سريعا حتى استطاع المسلمون أن يصلوا إلى قلب الجيش الفارسي، وشاء الله سبحانه وتعالى أن يبعث ريحا شديدة حتى سقطت خيمة

رستم، وفي تلك الأثناء وصل القعقاع ومن معه إلى سرير رستم، ولكن لم يجدوا رستم في مكانه، وكان رستم قد اختبأ تحت بغل يحمل الكثير من الأحمال حتى لا يراه أحد، وشاء الله تعالى أن يمر رجل من المسلمين وهو «هلال بن علفة» بجوار هذا البغل، فلما رأى هذه الأحمال ضربها بالسيف فسقط هذا الحمل على ظهر رستم حتى قصمت ظهره، فأخذ رستم نشابه ووضعها في قدم هلال الذي لاحظ وجود رستم تحت هذا البغل، وهرب رستم زحفا حتى بلغ نهر العتيق، وبلال يلحقه ودخل وراءه النهر وسحبه من رجله إلى خارج النهر وضرب رأسه بالسيف حتى قتله، وجلس على سرير رستم وصرخ صرخته المشهورة: «قتلت رستم ورب الكعبة»، وعندما علم الفرس بمقتل رستم انسحبوا مباشرة من أرض المعركة بعدما أدركوا خطورة الموقف، والمسلمون يطاردون فلول الفرس حتى تمكن الفرس من الهرب إلى المدائن بعد أن تمكن المسلمون من قتل أكثر من ثمانين ألف مقاتل، فمنح الله نصره كما وعد عباده، وكان نصرا مؤزرا مبينا.
انتهت معركة القادسية التي كانت يوما عظيما من أيام

المسلمين ومن أشد أيامهم، ومن بطولات الصحابة في القادسية، أن «ضرار بن الخ طاب» أسقط راية «درفش كابيان»، وهي راية الفرس العظمى ذات الشمس البنفسجية والقمر الذهبي، وهي راية كبيرة وضخمة، وهي من أشهر وأكبر الرايات في التاريخ، وهذه الراية لم تسقط حتى تلك اللحظة، والذي أسقطها هو ضرار بن الخطاب؛ فسقطت ولم ترتفع مرة أخرى، ويأتي أحد المسلمين وهو «زيد بن صوحان» وهو صحابي جليل من صحابة رسول الله ويده مقطوعة، ويجري فرحا ويده قد قطعت من القتال فأسرع إليه المسلمون حتى يعالجوه، فذكر لهم وتذكر معه الصحابة أنهم كانوا في غزوة مع رسول الله، فغفا رسول الله غفوة، ثم أفاق فقال: «زيد وما زيد! يده تسبقه إلى الجنة». ولم يعرف الصحابة ساعتها من هو زيد الذي عناه رسول الله، فرجع من يوم القادسية فرحا لأنه علم أنه المقصود بهذا الرجل الذي تسبقه يده إلى الجنة، ثم لحق به جسده الكريم في موقعة «الجمل»، فلقد استشهد في موقعة الجمل بيد واحدة.

في هذه المعركة حسم الله سبحانه وتعالى بها مصير

العراق ليصبح منطقة إسلامية، وكانت القادسية بداية لانتصارات إسلامية لاحقة من أهمها فتح المدائن عاصمة الفرس، وغنم المسلمون في معركة القادسية غنائم كثيرة كان من ضمنها راية فارس الكبرى، وبعث سعد بن أبي وقاص رسالة إلى أمير المؤمنين في المدينة المنورة مع «سعد بن عميلة الفزاري» يبشره بهذا النصر العظيم، وانطلق الفزاري مباشرة إلى المدينة ليبشر عمر بن الخ طاب رضي الله عنه بنتيجة المعركة، وكان عمر رضي الله عنه يخرج كل يوم إلى الظهيرة ينتظر أخبار المعركة، حتى أتى اليوم الذي وصله فيه سعد بن عميلة، فسأله عمر: «من أين يا عبد الله»؟ فقال سعد: «من القادسية»، فقال عمر: «وماذا حدث»؟ وهو يمشي بجانب سعد على رجليه وكان سعد على دابته، فيجيب سعد: «فتح الله على المسلمين»، وسعد مستعجل يريد أن يوصل الخ بر إلى أمير المؤمنين، ولا يدري أن من يمشي بجانبه هو عمر بن الخ طاب رضي الله عنه أمير المؤمنين، حتى إذا دخلوا مدينة النبي صلى الله على وسلم، وإذا بالناس يسلمون على عمر بإمرة المؤمنين، فقال له سعد بن عميلة: «هلا أخبرتني رحمك

الله أنك أمير المؤمنين»، فقال رضي الله عنه بكل تواضع: «لا عليك يا أخي»، وأخذ الرسالة واعتلى المنبر وتلاها على الناس وهو يقول: «من سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخ طاب أمير المؤمنين، فإن الله نصرنا على أهل فارس، ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل، وزلزال شديد، وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراؤون مثل زهائها فلم ينفعهم الله بذلك، بل ونقلها عنهم إلى المسلمين، وقد توفي من المسلمين فلان وفلان وآخرون لا يعلمهم أمير المؤمنين فالله بهم عالم، كانوا يدوون بالقرآن كدوي النحل إذا جن الليل، وهم في النهار آساد لا تشبههم الأسود، ولم يفضل من مضى منهم على من بقي، إلا بفضل الشهادة إذ لم تكتب لهم».

وهكذا انتهت هذه المعركة التي كانت من أعظم أيام المسلمين، فرحم الله شهدائنا الذين أوصلوا هذا الدين لي ولك.

المصادر والمراجع

قصص من التاريخ، علي الطنطاوي.

تحفة الأريب في الرد على الصليب، عبدالله الترجمان.

سير وأعلام النبلاء، الذهبي.

البداية والنهاية، ابن اكثير.

تاريخ الأمم والملوك، الطبري.

ماذا قدم المسلمون للعالم، د. راغب سرجاني.

الأندلس من الفتح إلى السقوط، د. راغب سرجاني.

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي.